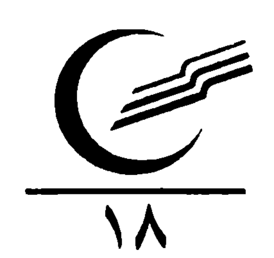


الشيخ نعمة هادي الساعدي


القرآن
لعقلية العربية



١٨



بقلم

الشيخ نعمة هادي الساعدي

ساعدي، نعمة هادي، ١٣١٠ ـ
القرآن والعقلية العربية / نعمة هادي الساعدي. ـ قم: دار الهدى، ١٣٨٢.
٢٠٦ ص.
ISBN 964 - 5902 - 91 - 6
فهرستنويسى بر اساس اطلاعات فيپا.
عربى.
١. فلسفه إسلامي ـ ـ تاثير قرآن. ٢. عقل گرايى (إسلام) ـ ـ جنبه‌هاى قرآني. الف. عنوان.
٤ق ٢س /BBR٤٢ ١٨٩/١
كتابخانه ملى ايران ٦١-٨٢م

هويّة الكتاب

اسم الكتاب: .... القرآن والعقلية العربية

اسم المؤلّف: .... نعمه هادي الساعدي

الناشر: .... دار الهدى

الطبعة:.............. الأولى / ١٤٢٤هـق ـ ١٣٨٢ هـش

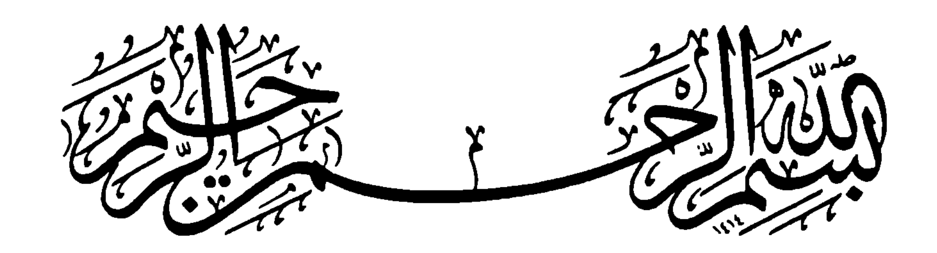
المطبعة: .... شريعت

عدد النسخ: ١٥٠٠

شابك ٦ ـ ٩١ ـ ٥٩٠٢ ـ ٩٦٤

ISBN: 964 - 5902 - 91 - 6


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

١ ـ بين يديك ـ عزيزي القارئ ـ دراسة عن العقليّة العربيّة ، وأثر القرآن في تحريرها وبلورتها ، وإعدادها لدعوته إلى الإيمان بالله ربّاً وبالإسلام شريعة ، وصقله لتلك الذهنيّة للتقبّل الدعوة الإسلاميّة ، والاعتراف بالنبوّة ، والإقرار بالحشر والمعاد ، وما قدّمه القرآن من أدلّة مقبولة ملائمة للإنسان العربي .

وفي القرآن حكايات وفصول عن الإنسان العربي وعقليّته ، وتأمّلاته ، وأحاسيسه ، وعقيدته في الله وإيمانه به ، وعبادته قبل الدعوة وتعلّقه بمقدّساته .

٢ ـ وفي القرآن أحاديث عن الصراع الفكري الذي عاشه الإنسان

العربي يوم دُعي إلى عبادة جديدة ، وشريعة عادلة ، والتخلّي عن القديم ، والاعتقاد بالله ونبذ الآلهة .

وفي القرآن صفحات وسور مشرقة تحكي لنا الصراع الفكري الذي واجهته الدعوة الإسلاميّة في أيّامها الأُولى ، مع خصومها المشركين من العرب بين فكر عربي جاهلي قديم ، وبين غرس تفكير إسلامي ، وخلق إيمان في ذهنيّة زرعت فيها الأوهام والخرافات ، وعشعشت فيها الأساطير الموروثة فانقادت إلى طاعة آلهة الأرض « الأصنام » ، وما هي إلّا حجارة ، وما هي إلّا جماد .

٣ ـ وخاض القرآن معركة جدل مع خصومه المشركين الذين يتّصفون بالعناد والتعصّب ، والتعلّق بالقديم الموروث ، فقدّم نماذج من الأدلّة لإقناع ذلك العقل بأنّ له إلـٰهاً وهو الخالق تعالى .

والقرآن عاش المجتمع العربي ، فيه أُنزل ، وعليه قرئ ، فحكى لنا أحاسيس وأفكار ومشاعر الإنسان العربي وطبيعته ، وعناده وتمسّكه وتعلّقه بتراثه الموروث عن الآباء والأجداد .

وفي القرآن عرض خالد ، عرض فيه العقل العربي وموقفه من الدعوة الإسلاميّة .

إنّه موقف حاسم بين عهدين بين الكفر والإيمان ، بين خلع القديم واعتناق مبدأ فيه سعادة الإنسان ، وما قدّمه القرآن من توعية لرفع مستوى عقل الإنسان العربي في التفكير في نفسه وفي الكون له أثر في جذبه إلى التوحيد .

وفي القرآن موقف وأكثر من موقف واحتجاج مع خصمه الإنسان العربي ، وفيه تشاهد الصراع بين الخصم وبين دعوة القرآن له ، وفيه تطلّع على موقف القرآن وعزمه وثباته في محاولة تحرير هذا الإنسان من الجاهليّة التي صاغته عابداً للأوثان ، وحجّرت ذهنيّته ، وقلّد الآباء والأجداد فيما يعبدون ويقدّسون .

ولكنّ القرآن سلّط أنواره على تلك الذهنيّة ، وخلق فيها تفكيراً جديداً في الخالق تعالى وآثاره .

٤ ـ والقرآن تيّار فكري جديد كان له الأثر في غرس التوحيد في الفرد والمجتمع .

والقرآن خالق تفكّر إسلامي في عقليّة عبدت أصناماً وأحجاراً ، فأزال القرآن ما كان مغروساً ، وغلغل في ذهنيّة الإنسان العربي الإيمان بالله ، والإيمان بالنبوّة ، والاعتقاد بوجود عالم وراء هذا العالم ، فاعترف بالحشر والمعاد ، فقدّم أدلّة وبراهين ، ودعا ونجح في دعوته .

إذن كيف برهن القرآن على إثبات وجود الله ؟ وكيف أقنع العقل العربي على الاعتراف بالحشر والمعاد ؟ وكيف وجد القرآن العقليّة العربيّة من حيث المستوى الفكري ؟ فقام في إعدادها لتتقبّل الدعوة الإسلاميّة والإيمان بالرسالة في مدّة وجيزة ، وكانت نهاية المعركة نجاح القرآن وخسران الخصم .

وفي هذه الدراسة تصوير لكلا الموقفين ، الخصم وهو الإنسان العربي في بداية الدعوة ، وموقف القرآن ، وقوّة الجدل ، وثبات الداعي ، وتوصّل القرآن إلى قلب مجتمع ، وتغيير معتقدات سائدة ، وإبدال الخطأ صواباً ، وخلق مجتمع عرف الحقيقة ، وتذوّق العقيدة ، ونزع ثياب الجاهليّة ، وخلق من أُولئك القوم المعاندين جيشاً سلاحه المعرفة واليقين والتوحيد ، ونبغ منهم المفكّر الذي لعب دوره في التأريخ ، والفضل يرجع للقرآن وأدلّته ، وللداعي وثباته وعزمه وسيره على ما هو مرسوم له من خطط ، فاجتاز العقبات ، وتغلّب على المشاكل ، وذلّل كلّ صعب وقف في طريقه ، وكان ذلك كلّه في مدّة ثلاث وعشرين سنة ، وارتحل الداعي ، وقد بلّغ رسالة ربّه ، وأدّى ما كان عليه تجاه أُمّته ، ودعا إلى سبيل ربّه ، وكان داعياً ناجحاً موفّقاً أدخل الناس إلى هذا الدين أفواجاً أفواجاً .

فكيف ندعو الناس إلى هذا الدين لنكون دعاة موفّقين ، ونخلق جيلاً سلاحه العقيدة والمعرفة والعلم ؟

سأجد فيك عزيزي القارئ إنساناً واعياً إلى قراءة هذه الرسالة الوجيزة ، والله الموفّق .

النجف الأشرف

نعمة هادي الساعدي

مقدّمة البحث

١ ـ اخترت هذا الموضوع لما فيه من جوانب كثيرة ؛ لصلته بالقرآن أوّلاً ، حيث تحدّث في أكثر من آية عن العقليّة العربيّة حين دعاها إلى الله ، وأقام لها أدلّة منطقيّة لإثبات وجوده ، وتحدّث عن المستوى الذي كانت عليه من التفكير والسعة الذهنيّة ، فاستغربت هذه الدعوة ، وفسّرت ترك عبادة الآلهة من أعجب الأُمور.

فقد وجد القرآن أُمّة تعلّقت بأصنام ، ودعاها إلى إله واحد قاهر خالق رازق ، بيده ملكوت السموات والأرض ، فكان ردّ الفعل شيئاً عجاباً ، ودعاها إلى الإيمان بالإعادة والخلق بعد الموت والحشر والمعاد ، وفسّرت ذلك صعباً بعيداً.

وأعلن القرآن أنّ الله بعث إليهم رسولاً وهو محمّد ﷺ ، وفسّر المجتمع العربي النبوّة بأنّها زعامة ، وهي لا تعطى لرجلٍ عاش فقيراً يتيماً ، إنّه شيء عجيب في هذا المجتمع ، وفي هذه الأُمّة ، وفي هذه العقليّة ، كيف يقدّر للدعوة أن تعيش وتحقّق انتصاراً وتغرس التوحيد !

إنّ القرآن روى لنا في كثير من فصوله منطق العقليّة العربيّة وأساليبها في الجدل والبرهنة والاستدلال ، وفي هذه الفصول القرآنيّة نجد غلبة القرآن وانتصاراته ، نقرأ ونرى كيف تغلّب القرآن وانتصر ، ولم يستطع العقل العربي الصمود أمام قوّة القرآن وأدلّته المنطقيّة التي أقامها وصاغها لإقناع العقل الذي آمن بالأصنام آلهة.

وإنّ القرآن عكس لنا التفاعل بين القديم الموروث ، وصوّر لنا الصراع الفكري بين ما كان يعيشه الإنسان العربي وبين محاولة الاستجابة لدعوة القرآن ، ورفع مستواه إلى الإيمان بأنّ له خالقاً وربّاً يجب الرجوع إليه ، إنّه «الله» بوحي من العقل السليم والفكر الواسع بمعرفة وإدراك.

والرجوع إلى القرآن لدراسة هذه الفصول سنصل إلى ناحيتين:

الأولىٰ: إدراكنا بقوّة القرآن وانتصاراته وتغلّبه في الاستدلال ، فاستطاع إقناع خصومه ، وإدراكنا لنجاح الدعوة الإسلاميّة التي عاشت في وسط تيّار جاهلي ظاهراً ذي عصبيّة وعناد ، فاستطاع أن يغرس في الذهنيّة العربيّة الإيمان بالله تعالى ، والاعتراف به خالقاً ، ونبذ القديم ، باختيارٍ من أنفسهم ورغبة وقناعة.

الثانية: وستطّلع من خلال قراءة هذه الآيات كيف وجد القرآن عقليّة تلك الأُمّة ومستواها الفكري ، وأثره في رفع المستوى ، فقدّم وسائل التحرير من خرافات الماضي الموروث ، وفتح آفاقاً جديدة

أمامها ، وسلّط عليها نوراً من السماء ، فأخرجها من الظلمات الفكـريّة إلى أنوار أشعّت على ذلك العقل ، فخلق فيها تـفكيراً جـديداً وأفكـاراً مستحدثة دعاها إليه في أكثر من آية .

دعاها إلى التفكير بالنفس والكون والوجود والخالق ، فكان لآيات القرآن المنزّلة أكبر الأثر ، وهو تيّار جديد يحمل معه آثاراً تلقّاه الإنسان العربي وأكثر عنده القول والتأمّل والاستفهام ، وكـان مـن آثـاره تـغيير المنطق العربي والفكر الذي عاش الضيق والجمود ، وما هـي إلّا فـترة وجيزة من نزوله وإذا بالذهن العربي تتغيّر آفاقه ومداركه .

٢ ـ واخترت دراسة هذا الموضوع لصلة القـرآن بـالعرب ، وصـلة العرب بالقرآن ، تلاوةً وقراءةً وحفظاً ، ونزول القرآن بلغة العرب أُسلوباً وصياغة .

وفي القرآن جانب عربي لا ريب فيه كـما اعـترف بـه عـلماء اللـغة ومؤرّخو الأدب ، والمفسّرون المعنيّون باللغة ، وأئمّة البلاغة العربيّة ، إنّ في القرآن جانباً عربيّاً ، وفيه أكثر من آية تدلّ على عروبة القرآن ، لغةً وصياغة . ومن الضروري دراسة هذه الصلة القرآنيّة العربيّة ، وإثـباتها ، والدفاع عنها .

وبعبارة أُخرى دراسة هذه الصلة بين العرب والقرآن ، أو بين القرآن والعربيّة ، لغةً وفنّاً وصياغةً وإعجازاً بلاغيّاً ساحراً ، الذي آمن به العقل العربي ، وأدركـه بـذوق فـطري ، فسـجد له ، واطـمأنّ له ، وتـعقّله ، وسمعه بأُذن عربيّة واعـية ؛ لأنّـه قـيل وصـيغ بـبلاغة عـربيّة ، وأُنـزل بأُسلوبٍ عربي ، وقرئ بلسان القوم لحكمة وهي :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾(١).

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾(٢).

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٣).

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ ﴾(٤).

ولا أُريد من قولي هذا أن أقصر القرآن على العرب دون غيرهم، أو على العربيّة دون غيرها من اللغات، أو أنّه كتاب للعرب ولا يصلح لغيرهم، أو هو معجزة لهم لا لغيرهم، ولا يتلاءم مع العقول الأُخرى المقبلة، ولا تقرؤه أُمم الأرض، كيف وفيه صلاحية لغير العرب وفيه سعة لعقولٍ مختلفة! وإنّما أُريد القول:

أوّلاً: أنّ القرآن عربي النزول محيطاً وأُسلوباً ولغة، وأنّ من العرب قرّاء وحفّاظاً له قبل غيرهم، وهم الذين تذوّقوا إعجازه بفطرة عربية وبلاغة موروثة(٥).

---

(١) إبراهيم: ٤.

(٢) مريم: ٩٧.

(٣) الزخرف: ٣.

(٤) فصّلت: ٤٤.

(٥) العربي بالفطرة والوراثة أدرك عذوبة صياغة القرآن وروعة هذا الكلام من حيث القوّة والمحتوى، ومن حيث رعايته للمقام، فكان العربي يعيش جاذبيّته ودفعاً إلى سماعه وهو عدوّ له.

وقد راعى القرآن ذلك ، وفي هذا سرّ ، وقد أجاب عن ذلك بقوله :

﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾[١].

ماذا ترى يتحقّق لو أُنزل بلسانٍ غير عربي ؟ والعرب قبل غيرهم من أُمم الأرض سمعوا آياته وفسّروها بقابليّة ، ووقفوا عنده بحيرة وغرابة ، وتأمّلوا صياغة تلك الآيات وروعتها وأثرها في النفس ، ولم يملكوا جواباً إلّا أنّه شعر أو سحر ، أو أقوال القدماء.

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾[٢].

والعرب قبل غيرهم أدركوا إعجازه البلاغي فأسرعوا للإيمان به أفواجاً ، وهو الذي دعاهم إلى صياغة كلام على شكله ونسجه ولو آية تشابه هذا القول.

وبقي صوته يدوّي علناً في أُذن الإنسان العربي ويتحدّاه ، ولكنّ القرآن لم يجد له مثيلاً من الكلام ، وكما أنّ القرآن صرّح بعجزهم واندحارهم وتخاذلهم وهم أُمراء الكلام وصاغة القول العذب.

ثانياً : أنّ القرآن كتاب الدنيا والوجود ، أو قل : هو كتاب الإنسانيّة جمعاء ، يستوعب أكثر من عقل ، وينتظر عقولاً سوف تتصفّحه وتقرأ آياته وسوره ، والعقول المقبلة سوف تدرك فيه معاني لم يدركها العقل

---

(١) الأحقاف : ١٢.

(٢) الزخرف : ٣٠.

العربي بالأمس ، وسوف تصل إلى حقائق لم ندركها نحن اليوم ، وأكثر من هذا القول: إنّ أحفادنا سوف يسخرون منّا في غدٍ ؛ إذ لم نستفد نحن اليوم من ينبوع القرآن العلمي ولم نقطف من ثماره العلميّة ، ولم نستوضح آياته إذ لم نصل إلى أسراره ، ولم نفهم الواقع القرآني إلّا يسيراً ، وأقول أيضاً في الإجابة عن السؤال الآتي:

ماذا أدرك الإنسان العربي من القرآن ؟ لم يدرك واقع القرآن وحقيقته وأسراره.

وفي القرآن أسرار وحقائق ، وإنّما أدركوا الجانب اللفظي وجميل الصياغة ، وتذوّقوا طعم ألفاظه وجمال آياته ، حيث صيغ على ما هو مألوف عندهم من فنون الكلام ، ورعاية المقام ، وملائمة أُذن السامع ، وذهنيّة المخاطب في إدراكه ، ولهجته وذوقه ، فجاء القرآن عربيّاً بآياته منطوقها ونزولها وصياغتها.

وحيث سمع العربي تلك الآيات جذبته بروعتها في إعجازها البلاغي ، وسحرها البياني ، جمال العبارة وقوّة الاستدلال ، وهو الذي أدركه العقل العربي ولم يدرك غيره ، فلم يدرك إعجاز القرآن العلمي في الفلسفة والطبيعيّات وغيرها من الأسرار العلميّة ، فليس في العقل العربي ذلك السلطان وتلك السعة أن يدرك ما في القرآن من إعجاز علمي(١).

---

(١) وهي فكرة حديثة نشطت وشاعت ، مفادها أنّ في القرآن إعجازاً علميّاً واسعاً سبق المختبرات العلميّة.

وقــــد آمــنّا أنّ القــرآن مــعجزة ليس للــعرب ويــقف ، وليس للمحيط وينتهي ، ولا للإنسان العربي الذي عـاش الحـجاز والطـائف والمدينة ومكّة.

وليس القرآن لزمان مـحدود ؛ إذ ليس هـو مـعجزة عـلى أفـراد ، أو لفترة ، أو لمحيط ، ليس هذا كما يذهب خصوم القرآن الذين لم يدركوا القرآن بذهن علمي ، ولم يعطوا القرآن حقّه من المـنزلة ، ولم يـتدبّروا القرآن وما فيه.

وأقول أيضاً : ليس القـرآن كـتاب ديـن ، وإنّـما هـو كـتاب الإنسـان العـالم ، والإنسـان الأديب ، والإنسـان السـياسي ، والإنسـان الفـقيه ، والإنسان المفكّر ، وهو معجزة يعجز الإنسان فيه وإليه.



إعجاز القرآن

وإعجاز القرآن من حيث هو قرآن معجزة ، كتاب جامع أسرار وحقائق وفنون وأُمور مختلفة ، نطق به إنسان عربي في محيط عربي ، وإعجازه متعدّد الجوانب : في الكلمة ، وفي الآية ، وفي السورة ، ومن حيث صياغة الكلمة العربيّة .

فالكلمة القرآنيّة هي من حيث وجودها وانتقاؤها واختيارها ووضعها والتكلّم بها واستعمالها في كلّ مقامٍ وآخر ، واختيار القرآن لكلّ سامع كلمة خاصّة ، وفي كلّ مقام ، واختلاف الكلمة القرآنيّة من حيث لهجة القبائل وتقبّل السامعين لها دون غيرها ، في ذلك معرفة عامّة بشؤون الكلمة العربيّة وتدوين هذه المجموعات من الكلمات العربيّة يخال للسامع أو للقارئ إنّها ذات معنى واحد وهي مختلفة ، ويعرف ذلك بالفهم اللغوي ، وفيه إعجاز من حيث وضع هذه الكلمة وبهذه الآية وتركها بالأُخرى .

وإعجازه من حيث الآية بداية ونهاية ومسافة وفاصلة ، وقد تكون الفاصلة موحّدة ومقاطع صوتيّة متشابهة ، يتأثّر منها السامع ويحسّ بها.

وإعجازه في السورة من حيث تعدّد فصولها والصورة الفنيّة فيها ، فسورة قصيرة ، وسورة طويلة ، وسورة بدأت بدعوى ، ثمّ أعقبتها بأدلّة وبراهين ، ثمّ بصيغ متقاربة ، وحديث وآخر ، وقصّة وأُخرى ، يعجز أي فنّان أن يقوم بسبك الموضوع الواحد بهذا اللون من النثر الفنّي ، وبهذه الجمل المختلفة اختلافاً قد يدرك أو لا يدرك ، وفي ذلك إعجاز فنّي في المحتوى العامّ للسورة ، ووضع فيها إعجاز بياني يشدّ السامع شدّاً ، ويجذبه إليه ، ويأخذ بلبّه وأُذنه.

وقد يذهب خصوم القرآن أنّ هذا اللون من الكلام معجزة الأمس ليس معجزة اليوم.

أقول : القرآن معجزة للإنسان عالماً وغير عالم ، عربيّاً وغير عربي ، أعجز القدماء ، وأعجز الباحثين اليوم من مسلمين وغير مسلمين ومفسّرين وغيرهم ، فلم يصل الجميع ولم ينتهوا إلى ساحل القرآن الحقيقي ؛ لأنّه قرآن الدهر ، وهو للعقول ، وهو للإنسانيّة ، فللعالم نصيب فيه ، وفيه قضايا علميّة تحدّث عن النفس وآثارها وإبداعها وأنّ للنفس إرادة وفاعليّة ، ولها سلطان ، والإنسان تحت سلطتها.

والقرآن أكثر من معجزة ، وهو خالق المعاجز الفكريّة ، ومعاجز القرآن كثيرة وكثيرة[١] ، فقد جاء فيه آيات وكلّها قضايا عميقة حار فيها مفكّرو العالم ، فكيف بالعقل العربي أن يدرك الإعجاز العلمي ذو الجوانب المختلفة ؟

وأنا لا أقول بجمود ذلك العقل وتخلّفه وعدم إدراكه للقضايا العامّة ؛ فإنّ أُمّة أنجبت أدباً عربيّاً ولا يزال موضع بحث وتحقيق ، وأنّ أُمّة نبغ فيها أفراد كانوا آية في الأدب وفنون الكلام العربي والقدرة على الجواب والجدل ، وهم الذين لعبوا الدور في مقابلة الحجّة بالحجّة ، والدليل بالدليل ، وقالوا وحكى القرآن نماذج من أقوالهم ، ووقفوا أمام تيّار القرآن ، وقالوا شعراً ونثراً ما يشبه الآي القرآني ، وحاربوا الدعوة حرباًكلامية شديدة حرباً حامية ، وهم أُمراء البيان من حيث الجمال والحسن ، وقالوا قولاً له شبه وقارب القرآن بوجهٍ وأكثر من وجه .

وإنّ أُمّة نبغ فيها دهاة ، وهم الذين بقي التأريخ يتحدّث عن جماجمهم وقوّة إدراكها ، وتقديم الحلول لأعظم المشاكل المعقّدة .

وإنّ أُمّة نبغ وظهر منها شرف الأنبياء من أُسرة مفكّرة ، وهي من أنفس الأُسر العربيّة ، ومن أطهر بقعة في الجزيرة .

---

(١) إعجاز بياني ، وإعجاز في اللغة ، وإعجاز في القالب والمضمون ، وإعجاز في الدلالة ، وإعجاز في الكلمة من حيث الترابط والوضع والاستعمال ، وإعجاز في الشكل والصورة العامّة .

إنّ هذه الأُمّة التي سمعت القرآن وأصغت لآياته ووقفت عندها وقوف المتأمّل ، كيف توصف بالتأخّر والجمود والتخلّف الذهني ! ؟

كيف والقرآن نزل على المستوى الفنّي والبلاغي الذي كان عليه الإنسان العربي ، ولم يتّخذ القرآن فنّاً ، أو صياغة ، أو أسلوباً ، أو نهجاً في الخطاب ، غير ما هو مألوف عند العرب ، فسمعوه واطمأنّوا إلى آياته ، وأنزل بكلامهم وبلاغتهم « قرآنا عربيّاً لعلّهم يعقلون » ، وقد عقلوه ، وفكّروا به ، وتأمّلوا آياته ، ووعوا آياته وإعجازها ، وما فيها من دليل وأحاديث ، ولكن يمكن القول والجزم به : إنّ العقل العربي لم يدرك كلّ ما تحدّث به ، ودعا له ، وبرهن عليه ، من قضايا التوحيد ، ولم يعرف العقل العربي كلّ القضايا الإلٰهيّة تفصيلاً .

وحديث القرآن عن الله وصفاته من حيث المفهوم والذات والصفات ، واتّصافه تعالى بهذه الصفات العديدة ، وتعلّق الذات بهذه الصفات حديث طويل أطال فيه القرآن وأطنب[١] ، وما هي هذه الصفات ؟ فقد دعا القرآن العرب إلى التوحيد في كثير من آياته ، وحارب عبادة الأصنام وأنصار الأوثان ، وأمر بعبادة الله ، وأقام أكثر من دليل على وجوده تعالى ، وأثبت افتقار الإنسان إلى خالق غني رازق بيده ملكوت كلّ شيء .

---

(١) مسألة صفاته تعالى مسألة علميّة أتعبت علماء الفلسفة الإسلاميّة ، والخلاف أنّ صفاته عين ذاته أم هي غير الذات ؟

وتحدّث القرآن عن صفاته بأكثر من آية قبل أن يتحدّث عنها فلاسفة المسلمين في العصور الأخيرة.

وقبل أن يذهبوا في بحوثهم إلى مذاهب فكريّة ويتفلّسفوا في ذاته وصفاته تعالى ويحرّروا أقوالاً قد تدرك أو لا تدرك، وقد تفهم أو لا تفهم، كما ظهر ذلك في العصر العبّاسي عندما نشطت الحركات العلميّة في البلاد الإسلاميّة.

وتفلّسف علماء الكلام والمفسّرون العلماء والمتفلّسفون في القرآن، وأكثروا في التعليل في ذاته وصفاته تعالى، ولكن في القرآن حديث عن هذه الصفات في أكثر من سورة، فقد دعا إلى الله بدليل، وأثبت صفات هذا الإلـه الذي أقام عليه أدلّته.

وجاء في القرآن أنّ صفاته متعدّدة، وتعداد صفاته بهذا الشكل من الكثرة فيه أكثر من سرّ، ومن خلال ذلك نستطلع إلى ما كان يقصده القرآن لتقريب ذهنيّة الإنسان العربي إلى ربّه ليدرك أنّ ربّه هو فيه ما كان يتصوّره من الصفات، وأنّه جامع للصفات الحسنة كلّها.

وقد تأثّر الذهن العربي بما كان يتصوّره غير العربي ويعتقده في الآلهة من صفات كثيرة، وأنّ الإلـه جبّار قوي قاهر، وآخرون يعتقدون أنّ الإلـه رحيم رؤوف عطوف، كريم في العطاء.

فجاءت دعوة القرآن إلى الله، وأنّه فيه هذه الصفات وغيرها، فأثبتها القرآن له تعالى لتكون دعوته شاملة وملائمة ليتقبّلها الإنسان

الذي اعتقد وتصوّر أنّ الآلهة عند اليونان ، فإلٰه الخير وإلٰه الشرّ وإلٰه الجمال وغيرها ، وعندهم أنّ كلّ إلٰه له صفة معيّنة تختلف عن صفات الإلٰه الآخر ، ولكنّ القرآن دعا وأقام أدلّة عقليّة وأثبت عدداً كثيراً من الصفات إلى الله تعالى.

وقد أتعب علماء المسلمين أنفسهم في التحدّث عن هذه الصفات ، وعن إقامة علم له كيانه وموضوعه ومسائله وهو علم الكلام ، وقبل ذلك كلّه تحدّث القرآن عن هذا الموضوع نفسه بعمق في آيات كثيرة أتعبت علماء التفسير لإدراك معرفتها ، فكيف بالعقل العربي في الأيّام الأُولى من الدعوة الإسلاميّة ؟ وهي دعوة إلى التوحيد ، وهي حرب على الآلهة المقدّسة وعلى الأحجار المنصوبة التي تعبد من دون الله تعالى فأقامها حرباً ، وأقامها أدلّة على بطلان هذه العبادة ، وأدلّة القرآن منطقيّة.

وفي القرآن قوالب تحمل مقاصد مختلفة ، وفيها الإعجاز الخفي ، وإعجاز القرآن يدرك اليوم وغداً.

وفي القرآن أدلّة وآيات لم يستطع العقل العربي أن يدرك واقعها إلّا ظاهراً كما فهمها المفسّرون والمحقّقون في علوم القرآن وآياته.



اختلاف آيات القرآن

الآيات القرآنيّة مختلفة في دلالتها ومنطوقها ومحتواها ، ففي القرآن آيات يستطيع البدوي الساذج والعامّي بكلّ سهولة فهم معناها ويتدبّر المراد والمقصود ، وفيه آيات علميّة ، وفيه آيات متناسقة ولا تزال فوق العقل الحديث لم يدرك معناها ، فكيف بالعقل العربي الذي عاش الصحراء ؟ وبعبارة أُخرى للإجابة على السؤال : هل أدرك الإنسان العربي واقع القرآن ومحتواه ؟

إنّها آيات لم يستطع عقل القرن العشرين خالق المعجزات أن يفهم واقعها ، أو يصل إلى عمقها ، أو يستطع الوصول إلى حقيقة هذه الآيات ، فكيف بالعقل العربي الذي عاش الصحراء الجافّة والطبيعة الشديدة ولم يتفاعل فكريّاً ، ولم يتأثّر بالأفكار المجاورة له الشائعة عند جيرانه ، ولم يتّصل بهم أو بغيرهم ، ليأخذ أو تتفتّح آفاق ذهنيّة له ينمو أو يدرك ما يسمعه من آياتٍ تنزل بين حينٍ وآخر ، وأنّى لهذا العقل أن يصل إلى واقع هذه الآيات وهي من النوع الأوّل ؟

أمّا النوع الثاني من آيات القرآن وهي واضحة دلالة وقصد لا تكلّف العقل كثير عناء وبذل جهد ومشقّة ، آيات واضحة يفهم معناها وعليه تحمل ولا تتحمّل أكثر من معانيها ، وليس فيها أكثر من احتمال ؛ إذ لا تحمل أكثر من المعنى الواضح المتبادر لذهن السامع مهما كان من البساطة يحتجّ بها ، أو تقرأ لسامع فيدرك ما فيها ويعلم ما فيها عند سماعها ؛ لأنّها آيات لا تعقيد ولا خفاء فيها يدرك المقصود منها بغير رجوع إلى تفسير أو مفسّر ، وكثير من هذا النوع في القرآن .

أمّا النوع الآخر فهي آيات قابلة لأكثر من معنى ، ويستطيع السامع حملها على أكثر من وجه ، وقد يبذل في سبيل ذلك جهداً ويتأمّل طويلاً ، فقد يصل أو يحسب أنّه قد وصل وأدرك الحقيقة ، والواقع هو لا يزال في أوّل الطريق آيات لا تزال بكراً ، ولم تفسّر التفسير الواقعي. إنّها آيات لها عقول تدركها في زمن مستقبل عقول واعية نامية ، إنّها آيات مقفلة مغلقة أُغلقت ووضع أمامها أقفال وحدود وحواجز ، ولكنّ مفاتيح هذه الآيات أُعطيت لمن يعرف أسرار واقعها ، وهم الراسخون ، وهم أهل الذكر[1] ، وفرض علينا القرآن السؤال والرجوع

---

(١) وقد دلّت الروايات الصحيحة الواردة عن الفريقين أنّهم أهل البيت عليهم السلام ، فهم فهموا القرآن ، ووقفوا على معالمه وأسراره ، فقد ورد في الكافي عن عبدالرحمن بن كثير ، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام ﴿ **فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل: ٤٣ ، الأنبياء: ٧]؟ قال: «الذِّكر محمّد ، ونحن أهله المسؤولون» الحديث.

إلى هذه الطبقة المفكّرة ، ولكن لا أدري من الراسخون ، ومن هم أهل الذكر ؟ وأين العقل المدرك لواقع هذه الآيات ؟ وهل استطاع العقل المفكّر العقل الخلّاق في عصرنا هذا أن يصل إلى عمق هذا البحر الغزير ، وإلى ساحل هذا المحيط ليدرك هذا القرآن هو معجزة للإنسانية وأنّه المعجزة الخالدة ؟

رغم كثرة المفسّرين ولا يزال العقل البشري اليوم وغداً يفكّر ويحاول معرفة آيات الله ، ويحسب هذا العقل ـ الذي خلق ما عجز عنه عقلاء الماضي ـ أنّه فسّر هذا الكتاب ، وتعالى القرآن وسما عن العقل البشري أن يصل إلى حقيقته ما دام هو معجزة خالدة ، وكيف أن يدرك هذا العقل ما فيه من معاني وأسرار ؟

إنّه فوق هذا العقل ، وسيبقى فوق العقل البشري وإن تطوّر وارتقى واتّسع . إنّه قرآن خالد ، إنّه قرآن للإنسانية ، إنّه لعقل الأمس معجزة ، ولعقل اليوم ، ولعقول إنسانيّة جديدة مفكّرة ، إنّ في ذلك دليل على إعجاز هذا القرآن وخلود إعجازه وصلاحيّة آياته .

إنّه معجزة بالأمس ، معجزة في هذا اليوم ، ومعجزة في غد ، إنّه معجزة استمراريّة يسع الزمن ويشمل الإنسان . وهو دليل على إعجازه الخالد وخلود آياته وصلاحيّتها ومرونتها وملائمتها لعقل الإنسان . إنسان المستقبل والفكر القادم وتفسير جديد ، وسيبقى القرآن قابل لتفسيرٍ جديدٍ رغم ما أجاد به علماء التفسير وقاموا به من بحوث في توضيح آياته ، رغم ذلك وهو لا يزال كما هو لم تدركه عقول المفسّرين ، ولا تزال آياته كما هي فيها معانٍ لم تدرك .

مذاهب التفسير

إنّ القرآن الكريم أتعب علماء التفسير وعلماء الفلسفة في معرفة وإدراك واقعه ، ولكلّ مفسّر نصيب في فهم الآية الواحدة على اختلاف مذاهبهم وقدرتهم ونهجهم .

والمفسّرون مختلفون ، فالمفسّر الفلسفي يعتبر القرآن كتاب فلسفة ، والمفسّر العالم يعتبره كتاب علم ، والمفسّر النفسي أخضع آيات القرآن لبحوث نفسيّة وعقليّة واستخرج منه مباحث في النفس .

والعالم الإنساني وهو المختصّ بدراسة هذا الكائن وتركيبه النفسي والعقلي ونموّه وتطوّره ، ووظائف كلّ عضلة درس القرآن وحلّل آياته تحليلاً علمياً ، وفي مذهبه أنّ القرآن تحدّث عن هذا الإنسان وخلقته ومصدر تكوينه وعناصره وتركيبه الفسلجي .

والعالم بالطبّ والعلاج المختلف درس القرآن ، والعالم بالكون والفضاء ، والعالم بالأرض وطبقاتها وسطحها واختلافها ، والعالم

بالأحياء النامية من نبات وحيوان ، وجد له نصيباً في القرآن ، فقد ورد في القرآن أكثر من آية عن النباتات وتركيبها ونموّها وحياتها واختلاف تركيبها وطعمها ، واللغوي والفقيه وغيرهم وهؤلاء كلّ له نصيب في تفسير كتاب الله .

وهؤلاء كلّهم قرءوا القرآن واقتبسوا من فيض آياته ، وأخذوا من القرآن واستفادوا من آياته ، وقرءوه وظنّوا أنّهم أدركوا واقعه وحقيقته ، ولكنّ هؤلاء لم يعطوا القرآن حقّه ولم يبلوروا المعاني الخفيّة في هذه الآيات .

وفي القرآن آيات وآيات ما أحوج البشريّة إلى أسرارها وثمارها ، وما دام القرآن كتاب الإنسان ليدرسه ويقطف منه خيراته ليصلح منه ما اعوجّ من حياته ، ويشقّ له طريقاً يوصله إلى السعادة ، وسيبقى هذا الإنسان يجد له نصيباً في كلّ زمنٍ في هذا القرآن ، وسوف يفسّره إنسان المستقبل ويختلف عن هذا الإنسان بتفكيره وحاجاته ومتطلّباته .

وفي القرآن ينابيع تمدّ الإنسان وترويه ، وإنسان اليوم أمدّ يده إلى غيره يستجدي السعادة .

وإنسان الغد سيدرك في هذا القرآن معاني خفيّة ، ولم يلتفت إليها المفسّرون العلماء وإنسان اليوم ، ولم يدر هؤلاء أنّ فيه ما يكفي هذا الإنسان في جميع شؤونه .

إذن فهل تؤمن بأنّ العقل العربي أدرك واقع القرآن وفهم أسراره يوم تليت عليه آياته العلميّة التي تتحدّث عن السماء، وعن الكون، وعن الإنسان، وعن النفس، وعن الله، وعن الفناء، وعن الموت والخليقة، وعن الأرض؟

وممّا لا ريب فيه أنّ العرب سمعت هذه الآيات وهي مجرّدة عن حكم شرعي تعبّدي أو دعوة إلى أخلاق، وإنّما هي آيات تتحدّث عن قضايا علميّة بحتة، وأدلّة عقليّة على وجود قدرة هائلة فاعلة ونفوذ قادر قدير بيده أُمور الكون.

وهذه الآيات بحثها فلاسفة المسلمين الذين بحثوا العلّة والمعلول، وواجب الوجود، ووجود نظام لهذا الكون، فوجد هؤلاء في هذه الآيات نصيباً، فغاصوا وتعمّقوا وأتعبوا أنفسهم فيها وتوسّعوا فيها، وهي تصلح دليلاً عقليّاً استدلالاً بالمعلول على وجود العلّة، كالآيات التي تحدّثت عن المخلوقات وعن الله وصفاته، إنّها آيات عميقة ليس كلّ عقل يستطيع إدراكها، فهل استطاع العقل العربي البدوي أن يعي هذه الآيات العلميّة ويدرك واقعها وحقيقتها تفصيلاً، أو إنّه آمن بإعجازها إجمالاً وأدرك الاستدلال القرآني على وجود الله تعالى إجمالاً؟

أقول بصراحة: إنّ العقل العربي لم ينضج علميّاً ليدرك واقع هذه الآيات التي رمزت وتنبّأت بالإعجاز العلمي قبل أن يتحقّق، وقبل أن

يتقدّم العلم وتتطوّر العلوم الحديثة والتجارب والمختبرات ، وقبل أن يتخصّص العلماء ويتوسّعوا في هذه القضايا العلميّة ، ولكنّ العقل سمع هذه الآيات وأدرك جانباً بسيطاً منها وخفي عليه جوانب كثيرة.

وأقول: إنّ القرآن وجد تخلّفاً نسبيّاً في تلك الذهنيّة ، فسلّط أنواره لرفع ذلك المستوى إلى جعلها أكثر وعياً فاتّخذ لذلك التدرّج والترقّي ، فرفع مستواها إلى درجة جعلها تتقبّل هذه المفاهيم الجديدة وجذبها إلى هذا القرآن ، واشترى قلوبها ، ومسك بعقل الإنسان العربي وأذنه ، وسكب فيها المعارف الجديدة ، ونبّه الذهنيّة إلى ما كان بعيداً خافياً غامضاً عميقاً لم يتحدّث عنه العربي في نثره وشعره.

فكان القرآن المعجزة القاهرة ، المعجزة في البيان وهو غذاء للعقل العربي ، وصقل لذهنيّة الإنسان العربي جذبه إليه فإذا سمع آية طار لها فرحاً وتأثّر شجاءاً ورقّة ، وملئت أُذنه رنّة وصدى من موسيقى الآية وانتظام هذه الجمل.

وفي القرآن موسيقى خاصّة هيمنت على نفس الإنسان العربي وجذبها إلى الاعتراف بالشريعة الإسلاميّة وإنّ له ربّاً ، وسخر بعبادة الآباء والأجداد التي كان عليها ردحاً من الزمن ، وعاش الخرافات والأساطير والعصبيّة في ذهنه ونفسه ، والفضل كلّ الفضل يرجع إلى القرآن.

واعتقد أنّك تصدّقني أنّ العرب لم تدرك من الإعجاز القرآني إلّا جزءاً واحداً أو طرفاً ، وهو الجانب الأدبي والبلاغة ، والجمال

اللفظي ، وحسن المعاني ، وجميل الأداء ، وظلّ الجانب العلمي خفياً مستوراً لم يدركه العرب ومن جاء بعدهم.

وحاول المفكّرون في عصور تلت العصر الإسلامي الأوّل معرفة القرآن معرفة علميّة واتّسعت الدراسات القرآنيّة.

أمّا الإنسان المعاصر الذي يعيش الأهواء ، فأكثر السؤال والفحص عن إعجاز هذا القرآن ، أين يستقرّ هذا الإعجاز ؟ وأين يختفي إعجاز القرآن في بيانه وبلاغته ؟

وإنسان اليوم يختلف عن الإنسان العربي الذي أدرك عصر نزول القرآن من حيث الذوق واللغة والأُسلوب والتأثّر بصوت الآية.

وقد لا يؤمن إنسان اليوم بهذا الإعجاز المدّعى ، أو قد لا يدرك إعجازه البياني ، وهل يصحّ هذا القرآن أن يكون معجزة للإنسان في كلّ مكان ، وفي كلّ لغة ، وفي كلّ قارة ؟

وبعبارة أُخرى أكثر وضوحاً: إنّ في القرآن إعجازاً لغويّاً وإعجازاً بلاغيّاً جاذباً لسامعه الإنسان العربي الذي يدرك ذلك بالفطرة ؛ ولأنّ القرآن نزل باللغة العربيّة ذات المستوى الرفيع المنزّهة عن الدخالة ، أي باللغة في عصر ازدهارها وأصالتها ، فإذا ترجم القرآن إلى لغة أُخرى ، أو اضطررنا إلى ترجمته للآخرين ، أو لنشر علومه ، أعتقد أنّك تصدّقني أنّه يفقد روعته ومحتواه وإيقاعه ، وأفرغنا قوالبه من الرنّة والصوت ، وتجرّد القرآن من الصياغة العربيّة أو الأساليب العربيّة وأصبح نثراً مقبولاً يحمل قضايا مختلفة وأُموراً عامّة.

ولكن لم يفقد القرآن إعجازه العلمي ؛ لأنّه معجزة في بيانه وبلاغته ، ومعجزة في علومه ،كما حاول المفكّرون إظهار واقتباس هذه الأسرار العلميّة ، وتفلسف العقل البشري في آيات القرآن ؛ محاولاً دراسة الآي القرآني دراسة عميقة ، حيث أدرك العلماء أنّ القرآن ليس كتاب دين فقط ، وإنّما كتاب علم قبل أن يكون كتاب دين وعبادة ، وكتاب لغة وأدب.

إذن هل أدرك العرب جوانب القرآن ؟

فإذا كان العرب ملوك البلاغة ، وأُمراء الكلام ، ونزل القرآن على ذوقهم ، وقد ثبت أنّ في القرآن جوانب علميّة ولم يدرك العرب إلّا الجانب الأدبي ، فقد يثار أمامنا هذا السؤال: هل العقليّة العربيّة عقليّة أدبيّة ولم تستطع التفكير العلمي ، ولم تنتج غير النتاج الأدبي ، أم كانت عقليّة واعية ناضجة ذات قدرة على التفكير والإدراك والتعليل ، كما يذهب إلى ذلك أنصار الأُمّة العربيّة ؟

والأُمّة العربيّة شأنها شأن باقي الأُمم ، لها خصوم وأنصار:

ـ فيذهب خصوم الأُمّة العربيّة أنّها عقليّة لم ترث غير الأدب ، ولم تنتج نتاجاً علميّاً وفكريّاً ، ولم يصل إلينا عن العرب نتاجاً غير الأدب ، فهي عقليّة أدبيّة.

ـ ويذهب أنصار هذه الأُمّة وأبناؤها والمتحيّزون إليها أنّ العقليّة العربيّة ذات قابليّة على التعليل وتفسير وإدراك ومعرفة في القضايا العامّة ، وخير شاهد ودليل ما ورد في أشعارهم ونثرهم وصراعهم الفكري ومواقفهم مع الدعوة الإسلاميّة.

وكان العقل العربي يؤمن بوجود خالق ، ولكن آمن بعبادة الواسطة ، كما نطق بذلك القرآن وصرّح بأنّ العقل العربي أدرك وجود ربّه وخالقه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾[1].

إذن لا بدّ من التوفيق بين الفريقين في معرفة المستوى العقلي للأُمّة العربيّة .

وهنا يثار السؤال الآخر :

كيف وجد القرآن هذه العقليّة يوم دعاها إلى الإيمان بالله بأيّ مستوى وجدها من التفكير والإدراك ؟ وكيف دعاها فاستجابت دعوته إلى الله ؟ فهل وجد فيها تقبّل واستجابة للدعوة إلى الله ؟ وهل استطاع القرآن أن يحرّرها ويبلورها ويعدّها إعداداً ، ويخرجها من الظلمات الفكريّة والجهل إلى نور العقيدة ، إلى الهداية ، ويغرس فيها التفكير بوجود الله ؟

إذن ما هي أساليب التحرير الفكري والتوعية التي قام بها القرآن ؟ وهل وجد في طريق الدعوة صعوبة يوم دعاها القرآن إلى الله والإيمان بالرسالة الإسلاميّة ؟

وقد تسأل أنّ القرآن تيّار جديد فما هو أثره في بلورة الذهنيّة

---

(١) الزخرف : ٩.

العربيّة ؟ ليقرأ عليهم أدلّة جديدة على وجود خالق ؟ وإثبات الخطأ الذي عاشته العقليّة العربيّة في عبادة الحجارة والجماد.

وما دام القرآن معجزة وهو الذي كلّم العقليّة بما يكلّم بعضهم البعض الآخر من فنون الكلام بجمال وحسن وحلاوة وسبك لفظي ، وصيغ بلسانٍ عربي مبين ، فكان لذلك أثر في العقليّة العربيّة ، فأقبلت على قراءة القرآن وسماعه واستماعه ، وهم الذين قرءوه قبل أن يقرأه غيرهم ، وهم الذين رتّلوا آياته وحفظوها ، فنبغ منهم القرّاء والحفّاظ ، وهم الذين تلوه على غيرهم ، وتدارسوه في المساجد وعلّموه غيرهم ، وإليهم يرجع الفضل في تعليم القرآن لغيرهم من المسلمين في العصور المتأخّرة التي دخل فيها إلى الإسلام عدد غير قليل ، وفيه واجه العرب العالم ، واحتجّوا به ، ودعوا غيرهم إلى الإسلام.

فالعرب لهم شرف السبق والقراءة والحفظ والتعليم ، وهم الذين أدركوا إعجازه قبل أن يدركه غيرهم ، وهم الذين استجابوا لدعوته ودخلوا إلى الدعوة أفواجاً ، وما ذلك إلّا لأنّهم تأثّروا بالقرآن وتذوّقوا آياته ، وأثّر بهم ، وجذبهم إليه ، فأدركوا قوله ، فأيّ مستوى من الإدراك كانت عليه تلك الأُمّة لتتأثّر بالآي القرآني ؟ وآياته ليست بذات موضوع واحد ، فقد نجد في القرآن ، أو في السورة الواحدة ، عدّة فصول ومواضيع مختلفة.

نحن نعيش اليوم بعقلية تختلف عن العقليّة القديمة ، ونقرأ القرآن

اليوم ونجد فيه آيات مختلفة وكلّها معجزة ، فـقد يـدرك مـحتواهـا أو لا يدرك.

وإعجاز القرآن قد يكون بالموضوع الجديد أو في الآية الواحدة ، فهو ظاهر وخفي ، علمي وأدبي.

إعجاز القرآن الفلسفي

ونقرأ القرآن ونجد فيه مصطلحات فلسفيّة ، وإعجازاً فلسفيّاً واضحاً ، جاء بمصطلحات فلسفيّة وأُسس فلسفيّة لم ترد على اللسان العربي من قبل ، وجاءت في القرآن الكريم في مواضيع مختلفة ، جاء بمفاهيم فلسفيّة ونهج فلسفي[1] .

وقد يسأل سائل عن الإعجاز الفلسفي الوارد في القرآن: هل أدرك العقل العربي هذا الإعجاز والنهج الفلسفي الوارد ، والمنطق الأخلاقي الذي أوضحه علماء التفسير والمتفلّسفون في القرآن في العصور الإسلاميّة ، واستفاد منه فلاسفة المسلمين ، فاستخرجوا منه أدلّة مقبولة ؟[2]

---

(١) راجع كتابي مشكلات الفلسفة والقرآن ، والمنطق الأخلاقي للأُستاذ الشمّاع ، والبيان للسيّد الخوئي .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازي .

وسيأتي مفكّرون ومفكّرون يلذهم الزمن ، ويخوضون في هذا القرآن ، ويدركون فيه حقائق جديدة لم يدركها المتقدّمون من المفسّرين والمفكّرين.

فهل أدرك العرب ما أدركه من جاء بعدهم من المفكّرين والباحثين والمفسّرين وعلماء الكلام ؟ فقد وجدوا في القرآن مادّة خصبة للتفلّسف والخوض في آياته.

ويختلف إدراك العرب عن إدراك من جاء بعدهم لفهم القرآن ومعرفة آياته.

أنا لا أقول : إنّ القرآن وجد عقليّة مجرّدة عن الذوق الفلسفي والتعليل الفكري ، كيف وكلّ إنسان خلق يتفلّسف ويسأل ويعلّل ، ويلتمس الأسباب ، ويعرف نتائج أبسط الأُمور ، ويدرك غاية كلّ عمل نفعاً أو ضرراً ، ويدرك أنّ لكلّ شيء سبباً ، وهذا أثر يدلّ على وجود مؤثّر كما نجد ذلك كثيراً بما ورد عن العرب نثراً وشعراً.

ولكن يمكن القول : إنّ القرآن وجد ذهنيّة فيها قابليّة على التفلّسف في الحياة ، ووضع أسباب قد تكون خطأً أو صواباً ، فطوّرها وصقلها بتيّار قرآني جديد ، فسكب عليها هذا الرافد العقائدي ، ورفع من مستوى تلك الذهنيّة ، ورفعها إلى المستوى الأوسع ، فأثمرت وأتت أُكلها ، وهذا كلّه بفضل القرآن ، والقرآن نور أضاء تلك الذهنيّة ، وهادي هدى ذلك العقل.

وفرق بين قولنا: إنّ للعرب قبل القرآن ذهنيّة ساذجة تدرك أبسط الأمور، وكان لها تفكير محدود وطابع فكري خاصّ، وبين قولنا: إنّ في الذهنيّة العربيّة قابليّة على التفلّسف والتعليل، وإقامة أدلّة معيّنة نفياً وإثباتاً لوجود الله، أو نبغ فيهم مفكّرون لهم نتاج فكري مقبول معروف، ونهج قائم يذكر وينسب إليهم أوّلهم استعداد على معرفة العلّة، وقوّة على الجدل، ومعرفة الأسباب والمسبّبات.

ولكنّ القول: إنّ القرآن وجد في الذهنيّة العربيّة تقبّلاً لأقواله وأدلّته رغم الخطأ الذي عاشه، ورغم التقليد والتعلّق بتراثهم الموروث، رغم هذا وذاك فسلّط القرآن أنوار هدايته، وأنار الآفاق الجديدة لتلك الذهنيّة، وخلق ذهنيّة جديدة، وتفكيراً جديداً هي الذهنيّة الإسلاميّة، وطبعها بطابع العقيدة الإسلاميّة.

وسيبقى هذا القرآن داعياً للإنسانيّة، ويغذّي هذا الإنسان الإيمان بربّه، وسوف يهدي البشريّة والأجيال المقبلة، وسوف يصل الإنسان في العصور المقبلة إلى أفكار جديدة لإقامة مجتمع سعيد يحقّق سعادته، وسيخرج نظامه من هذا الكتاب.

وسوف تستقبل العقليّة تفسيراً جديداً؛ تفسيراً سياسياً وعلمياً لم تعرفه عقول الأجيال السالفة، ولم تدركه العقول التي قرأته وفسّرته تفسيراً لغاية فرديّة وغاية محدودة، غاية لذات، أو لمنصب، أو لإثبات نفوذ، وتدعيم حكم، أو لأداء عبادة.

وكما قلت: القرآن ليس كتاب دين وحسب ، وليس لعصر معيّن أو لفترة محدودة ، فقد جمع بين العلم وسياسة الفرد ، وهو كتاب فيه نظام عامّ يصلح أن يكون نظاماً لدولة من أعظم الدول يقوم بإدارة جميع شؤونها ، ولم يترك جانباً من جوانب الحياة إلّا تحدّث عنه بأكثر من آية ، ولا مشكلة تعترض طريق هذا الإنسان إلّا قدّم لها الحلول ، وأيّ مشكلة لا نجد لها حلّاً في القرآن ، وأيّ سبيل يوصلنا إلى السعادة لم يضع له خططاً ، وشرع له أكثر من نهج ، ودعا إلى سلوكه واجتيازه ؟

وهذا وغيره دليل على أنّه هو قرآن للإنسان ، وإنّه معجزة الدهر ، وكتاب يساير هذا الفرد ورقيّه وتطوّره للعالم والمفكّر والأديب.

فإعجازه العلمي أدركه العالم ويدركه العلماء في غد ، وإعجاز فلسفي في أكثر من موضوع في موضوع الإلـٰهيّات ، وفي البرهنة على المعاد والحشر ، وإعادة هذا الإنسان مرّة ثانية.

١ ـ وضح أنّ الذي خلق أوّلاً هو الذي يخلق مرّة ثانية ، فلا إعياء ، ولا عجز ، ولا وهن ، والخالق ذلك الخالق ، والمخلوق في المرّة الأُولى هو الذي سيعاد في الثانية شكلاً وقالباً وأعضاءً ومادّة وجسماً.

٢ ـ ويذهب القرآن في بيان قدرة الفاعل الموجد أنّ القدرة على تكوين أصغر حيوان وتسليحه بقوّة وقوى ودفع وهدى نحو معاشه ، هي أعظم من القدرة على خلق حيوان كبير الحجم والجثّة.

فالنملة وإمدادها بمختلف الوسائل للجري والزحف ، أو الطير وخفّة جسمه وتكوينه وإعداده على الطيران والدفاع عن نفسه ، إنّ

هذا دليل على هندسة فاعل قادر ماهر لا عجز في ساحته، إنّ هذا المنهج هو الذي سلكه القرآن في الاستدلال.

٣ ـ ويذهب القرآن في الاستدلال بالآثار المخلوقة، حسّيّة وغير حسّيّة، فدعا إلى التفكير فيها والتأمّل، ومن خلال ذلك الوصول إلى أنّ هذا مخلوق له خالق، ومن إثبات المعلول نصل إلى إثبات العلّة على أساس أنّ لكلّ معلول علّة بقوله:

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

٤ ـ ويستدلّ القرآن أيضاً بدليل الحصر بأنّ الشيء، أيّ شيء فرضته إمّا وجد صدفة واعتباطاً، أي أوجد نفسه بنفسه، أو له علّة أوجدته، أو هو خالق غيره، ويذهب القرآن إلى نفي ذلك، أي لا هذا ولا ذاك، وأثبت العجز والفقر والحاجة إلى علّة فاعلة خالقة بقوله:

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾(٢).

٥ ـ ويذهب القرآن ويستدلّ على وحدانية هذه العلّة ووحدانية هذا الفاعل الغني المطلق الذي لا شريك ولا مثيل ولا ندّ له، فاستدلّ بدليل التمانع بقوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٣)، فالآية ترمز إلى عدم تعدّد الآلهة في السموات

---

(١) الروم: ٥٠.

(٢) الطور: ٣٥.

(٣) الأنبياء: ٢٢.

والأرض ، ويتبع ذلك التعدّد تعدّد الآراء واختلاف النفوذ والسلطان.

٦ ـ كما أثبت في أكثر من آية إلى تقسيم الموجود إلى ممكن مفتقر إلى غيره في وجوده ، وفاقد القدرة على وجود نفسه كيف يعطي الوجود لغيره ، وهو ما تحدّث عنه الفلاسفة بقولهم : « فاقد الشيء لا يعطيه » ، وأثبت القرآن حاجة هذا الممكن إلى موجد وخالق غني ؛ لأنّ وجود الممكن من وجود غيره ، وتوصّل القرآن إلى أنّ الله هو الغني ، وغيره مفتقر بقوله : ﴿ وَاللهُ غَنِيٌّ حمِيدٌ ﴾[١].

٧ ـ وجاء في القرآن بقانون الجزئيّة والبعض ، ونزّه الخالق عن هذا المعتقد الخاطئ ، وإنّما صرّح القرآن بذلك تصحيحاً لهذه المفاهيم الخاطئة التي طبّقت وعلقت في الذهنيّة العربيّة بقوله تعالى ردّاً عليهم : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِن عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾[٢].

وتحدّث القرآن عن حاجة المفتقر إلى علّة في الوجود والاستمرار والبقاء ، وأثبت زوال وتغيّر الممكنات وعدم بقائها ، وأثبت بقاء الخالق وأزليّته ، ومن خلال ذلك نبّه الذهنيّة إلى أحقّيّته هذه بالربوبيّة وبطلان الآخر ؛ لأنّه لم يحقّق لنفسه الاستمرار والبقاء ، فتحدّث عن إبراهيم الخليل عليه السلام كيف استدلّ على وجود الله واستمراريّته وبقائه في كلّ آنٍ وفي كلّ زمن ، ولم يكن في آنٍ ما ، وعدم تغيّر كما هو شأن

---

(١) التغابن : ٦.

(٢) الزخرف : ١٥.

المخلوقات الموجودة التي عبدها العقل واعتبرها آلهة خطأً ، ولكنّ القرآن من خلال حديثه عن قول إبراهيم ، وقوله مع خصومه عبدة الأصنام أثبت ذلك.

وفي الآية حكاية ودليل وتنزيه ، وإثبات صفة الدوام له تعالى ، وإثبات صفة الزوال والافتقار في وجودها واستمرارها ، وتنزيه الله عن صفة الزوال ، وهذه وغيرها قضايا فلسفيّة بحتة.

وكم في القرآن من قضيّة فلسفيّة تتحدّث عن موضوع ، ومن خلال ذلك تنبيه للذهنيّة إلى برهنة واستدلال ، أو ينطق في الحكاية إلى مجال يدركه العقل الواعي ، أو عقليّة العالم ، ويتّخذ لذلك برهاناً على وجوده تعالى ، أو صفة جماليّة ، أو إثبات صفة العجز لغيره ؟

وتحدّث القرآن عن إبراهيم الخليل عليه السلام بقوله :

﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[١].

وبهذا الأسلوب العلمي المنطقي يوجّه القرآن العقل إلى التأمّل للوصول إلى نتيجة الاعتراف بأنّ ما يعبد من دون الله لا يستطيع

---

(١) الأنبياء : ٦٢ ـ ٦٧.

النطق ، ومن لا يستطيع النطق إذن هو جماد ، لا يعطي نفعاً ، ولا يدفع ضرّاً عن أتباعه ، إذن كيف يعبد من دون الله ؟!

ويتّخذ القرآن هذا الأسلوب وهذا العرض لهذه الآلهة ، ويقف إبراهيم ناقداً هادماً لفكرة قائمة وعبادة ، وعباداً أحاطوا بأصنامهم ، والأصنام مختلفة ولهم كبير يعتقدون فيه اعتقاداً أنّه عظيم الأصنام وهو لا ينطق ، ولم يستطع الدفاع عن هذه الآلهة .

إذن كيف السبيل لإقناع هؤلاء بأنّ هذه جمادات صامتة ؟ لا تعطي شيئاً ، ولا تستطيع حتّى حماية أنفسها من الاعتداء عليها ؟ ! وقد اعتدي عليها وتكسّرت ، فهل استطاع الكبير حماية نفسه وحماية غيره ؟ !

كيف السبيل لإقامة دليل يؤدّي إلى ثمرة مقبولة ؟ إنّه لا يتكلّم ، ولا ينطق ليوضّح المعتدي ويعرِّف به ، فأخذ القرآن سبيل الاستفهام والجواب سلباً . والنتيجة التي أوصل العقل إليها أنّ من لا يستطيع حماية نفسه كيف يحمي غيره ؟! ومن لا يستطيع التكلّم كيف يُعبد ؟! ومن كان جماداً لا يعطي لعابديه والمعتقدين به اعتقاد الربوبيّة جزافاً بغير إدراك وبغير تعقّل ، القرآن يسأل من لا يدرك واقع هذا الصنم ، إنّه جماد ، والقرآن يجيب والنتيجة : الذمّ لتلك العقليّة القديمة بهذا الأُسلوب ، ويقدّم هذا الاستفهام مع العلم بواقع العابد والمعبود ، وصياغة الاستفهام مختلفة .

أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم ، ولا يدفع عن نفسه ولا يتكلّم ؟ أتعبدون حجارة ؟ !

والغاية من ذلك أنّ من يستحقّ العبادة من ينفعكم وخلقكم ، ويسكب رحمته عليكم ، وينزل الرزق إليكم ، إذن هو أوْلى بالعبادة ، وإليه مرجع الأُمور ، وهو ربّكم الله تعالى.

والغاية من هذا النهج القرآني هو إثبات العجز والافتقار في الوجود للخالق ؛ لأنّه كمال كلّه ، وإثبات بطلان عبادة الجماد والأرض والحجارة الصمّاء.

ويعيد القرآن ويثبت عجز هذه الآلهة فيقول:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِن قَبْلِ هٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِن عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[١].

فلا هذا ولا ذاك ، لم يخلقوا شيئاً يدلّ على قدرة هذه الآلهة التي زعموها آلهة ، وليس هناك أثراً يدلّ على قدرة هذه الآلهة ، إذن ثبت عجزهم ، وعدم أهليّتهم للربوبيّة والعبادة ، وثبت عقلاً عبادة الخالق تعالى.

إنّ هذا من أساليب القرآن المنطقيّة ، من باب التوقّف ، الشيء يتوقّف على شيء آخر ، أو الأثر يدلّ على المؤثّر ، والمخلوق يدلّ على وجود خالق له.



---

(١) الأحقاف : ٤.

القضايا الفلسفيّة في القرآن

وفي القرآن الكريم قضايا فلسفيّة كثيرة متعدّدة منها :

١ ـ العلم والجهل من حيث قِدم أحدهما وتأخّر الثاني ، وأسبقيّة أحدهما على الآخر ، ويذهب القرآن إلى أنّ الجهل أسبق من العلم ، وأنّ الفرد خلق جاهلاً وعرض عليه العلم عرضاً .

٢ ـ الظلمة والنور ، ويذهب القرآن إلى أنّ الظلمة أسبق وجوداً من النور .

٣ ـ الخير والشرّ وأسبقيّة الخير على الشرّ وجوداً .

٤ ـ الجبر والتفويض وموقف العبد من ذلك ، وسلطة الله .

٥ ـ السعادة والشقاء ، وأسباب ذلك .

٦ ـ الإيمان والجحود والكفر ، وأيّهما أسبق ، وهل خلق العبد مؤمناً أو كافراً ؟ ويذهب القرآن إلى أسبقيّة الإيمان ، وأنّ الكفر بأسباب خارجيّة كان لها أثر في ذهنيّة الفرد فجحد الله وكفر به .

٧ ـ ويؤكّد القرآن في أكثر من آية على العقل والقضايا المسنودة بعقل وإدراك واستدلال وبرهنة ، ويذهب القرآن الكريم إلى أنّ الرجوع إلى العقل أفضل من العاطفة والتعصّب .

٨ ـ وحارب القرآن التفؤّل والتطيّر ، وربط بين المسبّبات والأسباب ، وأثبت قانون السببيّة ، وأنّ لكلّ شيء سبباً ولا يقع بغيره .

٩ ـ وتحدّث عن المخلوقات والعوالم العديدة ، عالم البرزخ وما يبصر بالعين ، أو ما يراه بالرؤية البصريّة ، وما وراء هذا العالم ، فتحدّث عن المخلوقات كالملائكة والجنّ والوحي ، وهي مسألة أشغلت فكر العلماء الإلٰهيّين وغيرهم من الخصوم .

١٠ ـ وتحدّث القرآن عن الروح والنفس وآثارها وانفعالاتها وخلودها واحتياجها إلى قالب ، وهو ما قاله الفلاسفة .

١١ ـ وتحدّث عن اللذّة والألم والحساسيّة والإدراك في مسألة العذاب والعقاب والثواب ، وما يلاقيه المؤمن من الملذّات ، وما يلاقيه الكافر من العذاب .

ويذهب القرآن إلىٰ أنّ إدراك ذلك إنّما هو للنفس ، ولكن بواسطة الجوارح والأعضاء والحواسّ ، وأنّ ذلك لا يدرك بغيرها حتّى الموت فيدرك طعمه في النفس ، ويذهب القرآن أنّ النفس ذائقة هذا الطعم .

ويذهب القرآن إلى الإعادة بعد الموت ، وليس عنده الموت عدماً ؛ لأنّ العدم لا يعاد .

١٢ ـ وفي الآيات القرآنيّة طابع منطقي فيقدّم الفكرة كيف كانت ، ثمّ يبدأ بمقدّمة وتوطئة وتمهيد وتهيئة الذهن ، ويقدّم له حديثاً لإعداد المخاطب أو السامع ، وهدف الاستدلال ، ثمّ يستدلّ على الهدم ، أو يستدلّ على البناء ، أي على الخطأ أو على الصواب ، ثمّ يوصله إلى نتيجة وإلى واقعيّة مقبولة عنده.

١٣ ـ وأكثر من هذا ، فإنّ كثيراً من الآيات التي تحدّثت عن التوحيد وعن الحشر والمعاد تصلح لأن تكون ذات أشكال منطقيّة تؤلّف شكلاً أوّلياً ، أو ذات قضايا منطقيّة بعد التأمّل وملاحظة الآية بداية ونهاية وموضوعاً وقصداً ، مثال ذلك الآيات التي حاربت عبادة الأصنام ، وسخرت من العقليّة التي أسمت هذه الجمادات آلهة ، وحاربت المتعصّبين وأوصلتهم إلى نتيجة مقبولة منطقياً مثل :

أنّ هذا صنم جماد وكلّ جماد مخلوق.

أو هذا صنم لا يدفع عن نفسه ، ومن لا يدفع عن نفسه لا يدفع عن غيره.

أو هذا إلـه الأرض وإلـه الأرض لا يعبد ، فهذا ليس إلـه.

أو هذه جمادات صمّاء لا تعطي لغيرها الحياة ، ومن لا يعطي لغيره ليس بإله.

١٤ ـ وتحدّث القرآن في أكثر من آية عن الكواكب والفلك والقمر والمجموعة الشمسيّة وحركتها وأشعّتها وأبعادها وتعدّدها.

١٥ ـ وتحدّث القرآن عن الحياة وأسرارها ومقرّها وحدوثها أو قدمها في الحيوان وفي الإنسان وفي النبات ، وأثبت أنّ في الحياة أسراراً لا يدركها الإنسان.

١٦ ـ وفي القرآن منطق أخلاقي عجيب لا ينكر [١].

١٧ ـ وأبطل القرآن فكرة تعدّد الآلهة وشريك الباري ، وأثبت الوحدانيّة والأحديّة ، وأنزل في ذلك سورة ذات جوانب فكريّة خطيرة وهي سورة التوحيد: ﴿ **قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ...** ﴾.

وفي هذه السورة تحدّث عن الصفات الجلاليّة له تعالى ، ونزّه الله عن أكثر من صفة لا تليق له تعالى وتليق لغيره.

١٨ ـ وتكلّم القرآن عن مفاهيم علميّة دقيقة هي ذات صلة بالعلوم الطبيعيّة الفلسفيّة ، تكلّم عن الحرارة والبرودة ودرجة الانخفاض والارتفاع والإحراق والانجماد عندما تكلّم عن العذاب والتعذيب وعن حرارة النيران وأثرها في الاحتراق.

١٩ ـ وتحدّث القرآن عن مفهوم الموجود والمعدوم ، وعن المحسوس بإحدى الحواسّ ، فنجد القرآن تحدّث عن الظلمة وعن النور ، وفي القرآن إنّ النور موجود والظلمة موجودة.

ويذهب القرآن أنّ النور والظلمة والموت أُمور موجودة ، فالموت ليس بعدم للشيء ، والظلمة ليست بعدم للنور ، وأنّ الظلمة معنى

---

(١) راجع المنطق الأخلاقي لأُستاذنا الشمّاع ، فيه حديث طويل.

وجودي كما يقال: هذه ظلمة ، فهي محسوسة ، وفي قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾[١] ، والجعل لا يتعلّق إلّا بمعنى وجودي.

وكذلك الحياة فهي من الأُمور الوجوديّة وإن لم تدرك أسرارها ، وإنّما تدرك آثارها كالحركة والكلام والنموّ والدم والحياة أمر وجودي.

ولا نعرف من الحياة إلّا مظاهرها وآثارها ، وقد أخبر القرآن أنّ البشر لا تدرك من الحياة إلّا ظاهرها ، وكذلك الموت الذي يعرض على كلّ جسم كما يذهب لذلك القرآن ، ويذهب القرآن إلى خلقه الموت كما صرّح بقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾[٢] ، فهو أمر وجودي ، والخلق لا يكون إلّا بالموجودات.

٢٠ ـ وفي القرآن أكثر من آية فيها إبطال للدور والتسلسل ، كما أبطل القرآن أدلّة من استدلّ على الباطل وتعلّق به ودعا له وتعصّب له ، فأقام القرآن دليلاً قويّاً على إبطال معتقده ، وأثبت وجود قوّة خالقة ، إليها ترجع الأُمور ، ولها الطاعة والعبادة بدليل عقلي قويّ خالد ، وأدلّة القرآن لها طابعها الخاصّ.

كما في القرآن مصطلحات كثيرة لها صلة في علم الإنسان والحيوان والنبات والعلوم الكونيّة والرياضيّة والفلسفيّة بمختلف فروعها وجوانبها ، وهي نفس هذه المصطلحات جاءت على لسان الفلاسفة ،

---

(١) الأنعام: ١.

(٢) الملك: ٢.

وهـي مـباحث عـلمية ومـفاهيم عـميقة الفكـر والخيـال والشـعور واللّاشـعور والإدراك واللبّ والتـعقّل والحكـمة والذوق وقـانون الأولويّة ، والدالّ والمدلول ، والدلالة وأنواعـها ، وقـانون المـلازمة ، والتغيّر وعدم الاستقرار ، والبقاء والزوال ، والأزليّة والقِدم والحدوث ، والكـمال والفـقر والحـاجة ، والسكـون والتـغيّر والحـركة ، والإرادة والمشيئة ، والقضاء والقدر ، والأجل والفناء ، والنهاية والبداية ، وهذه وغيرها جاءت في الفلسفة وعلى ألسن الفلاسفة ، كما استعمل القـرآن ضرب الفرضيّة والفرض لإقامة الدليل على خـصومه ، واعـتبر مسـألة فرضاً للجدل وإقامة برهان لإقناع المخاطب.

وفي القرآن باب واسع ومسرح جدلي يخلق خصماً اختلاقاً وإن لم يكـن مـوجوداً ، فكـأنّه يـخلق صـنفين ، أحـدهما يسـتدلّ ، والآخـر يعارض ، فيقيم الدليل لإقناع خصومه وإثبات الحقيقة ، وإثبات الحقّ لأحدها وبطلان عقيدة الآخر ، ويجعل القرآن الغلبة لأحـدهما ، وهـو أُسلوب لا يزال متّبعاً عند الكتّاب ، وهو منهج جاء به القرآن.

وفي القرآن تـأكـيد عـلى المسـموعات والمـبصرات والمـدركات الحسّية ، كما أكّد عليها عـلماء المـنطق ، وأطـلقوا عـليها السـمعيّة أو البصريّة ، ويرى هؤلاء أنّها أحد طرق ووسائل المعرفة.

وأكّد القرآن على ما يسمع وما يبصر وما يدرك ذهناً في أكثر من آية:

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا

أَفْـئِدَتُهُم مِـن شَـيْءٍ إِذْ كَـانُوا يَـجْحَدُونَ بِـآيَاتِ اللهِ وَحَـاقَ بِهِم مَّا كَـانُوا بِـهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[١].

وفي الآية جوانب علميّة دقيقة واستدلال مقبول.

وفي القرآن أكثر من آية تحدّث فيها عن المادّة وخصائصها وافتقارها إلى الوجود، وعن طبيعة هذه المادّة وتركيبها قبل أن يتحدّث عنها علماء الكون والذرّة والمادّيّون القدماء.

وتحدّث القرآن عن الأجسام وطبيعة الجسم، واعتبر الظلّ له ظلال وظلمة، وتدرك في الشمس، اقرأ قوله تعالى:

﴿ أَوَ لَم يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَـمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾[٢].

وهذا المصطلح الذي جاء به القرآن ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾، ومفهوم الشيء وشيئيّة الشيء، وهل يصحّ إطلاق الشيء على المعنى الوجودي المحسوس فقط؟ وهل الشيء يطلق على المعنى الوجودي أو يصحّ إطلاقه على المعدوم؟ وهل يصحّ إطلاق الشيء على الأجسام المحسوسة بالعين فقط أو هو موضوع عامّ؟

وفي هذه الآية يذهب القرآن إلى أنّ الظلّ شيء له نصيب من الوجود، وأنّ الظلّ مخلوق وفيه إيجاد في الجسمية المدركة، وفيه

---

(١) الأحقاف: ٢٦.

(٢) النحل: ٤٨.

دلالة على إبداع إلـهي ، والشيء ـ أي شيء ـ فرضته أو سمّيته شيئاً فهو فيه قدرة تدخّلت وأوجدته ومنحته حصّة من الوجود ، وأفاضت عليه نصيباً من الإبداع والفنّ والجمال والخصائص ، وفي ذلك دليل على وجود قدرة جبّارة موجدة قدّرته تقديراً ، وكلّ شيء فرضته فإنّه لم يحرم من النظام والتقنين والابداع والتقدير ، وقد صدق القرآن: ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾[1] ، ويراد أنّ كلّ شيء من الأشياء الذي أوجد على وجه هذه الكرة فهو موزون بوزن ومقدّر بقدرٍ معيّن ، ومقادير لا تزيد ولا تنقص ، قدّره قادر ، وأوجده بمقادير محدودة ، لا نقصان ولا زيادة ، وفي إيجاد الأشياء بمقادير وموازين دقيقة قد تدرك هذه المقادير أو لا تدرك إلّا بعقليّة عالمة ، وفي ذلك برهان على وجود عقل مهندس أوجدها بمقادير لا يزيدها ولا ينقصها.

والحديث عن الظلّ في القرآن جاء بأكثر من آية : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾[2] ، وفي قوله : ﴿ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾[3] ، وفي قوله : ﴿ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ﴾ ...

فليس المقصود وجوده في الأجسام أو ظهوره ورؤيته وصورته الخارجيّة المحسوسة ، بل تغيّره وزيادته ونقصانه ، وعدم ثباته زيادةً

---

(١) الحجر : ١٩.

(٢) الفرقان : ٤٥.

(٣) المرسلات : ٣٠.

ونقصاناً ومساواةً للجسم[١] ، وفي ذلك دلالة على وجود من يـغيّره ، ويزيده وينقصه ، ويظهره حول كلّ جسم ـ أيّ جسم فرضته ـ متحرّك أو ثابت ، جماداً أو جسماً نامياً ، فـالظلّ بـين ذهـاب وإيـاب ، وزيـادة ونقصان ، حول هذا الجسم المحسوس.

فلا بدّ من وجود قوّة فاعلة فيه فعلها المدرك بالعين ، وبعد التـأمّل ندرك وراء ذلك وجود قدرة لا تدرك بـالعين تـدرك عـقلاً ، أنّـها قـوّة لعبت دورها بالكون قوّة عظيمة في هذا المحسوس تجعل الظـلّ عـن يمين هذا الجسم تارةً وعن شماله تارةً أُخرى.

ومن هنا ندرك أنّ الفلسفة القرآنيّة في كلّ الأُمور والأشياء والحقائق العقليّة ، إنّما هي وسيلة لا غاية وواسطة لمعرفة الله تعالى ، وإلّا لا خـير في علم لا يوصل إلى معرفة الخالق سبحانه.

والقرآن في مـقام هـدم نـظرية القـرون السـابقة التـي غـذّت العـقل بالظلام وغرست هـذا المـفهوم : أنّ الأشـياء أوجـدت وكـوّنت نـفسها بنفسها ، أيصحّ أن يكون بناء من غير بانٍ ، أو زرع بلا زارع ! ؟

واسـتمرّ القـرآن بـهدم الخـرافـات الواهـية ، وعـنده أنّـها كـنسيج العنكبوت ، نسيج البشر ، دعاة الإجرام والجحود.

القرآن يحاول بناء الحقائق في الذهنيّة البشـريّة ، وغـرس التـوحيد

---

(١) وقد تحدّث الفقهاء فـي مـعرفة وقت الظـهر والعـصر كـثيراً عـن زيـادة الظـلّ ومساواته ، راجع الكتب الفقهية.

في عقول مؤمنة ، وهذا لا يتمّ إلّا بعد إزالة ما كان عالقاً في الأذهان ، وبناء عقيدة قوامها الدليل والتفكير ، وأساسها المعرفة بخالق الكون سبحانه .

والقرآن عندما يتحدّث عن الظلّ ، أو عن الظلمة ، أو عن النفس ، أو يتحدّث عن الوجود ، وعن السكون ، وعن النور ، ليس هو كتاباً طبيعيّاً ، أو يقتل الوقت في الحديث عن هذه المظاهر العامّة ، أو عن التغيّرات الحسيّة المدركة ، أو يتحدّث عن الليل ، أو عن النهار بما هو ليل ، أو عن الشمس ، وإنّما للحديث ثمرة ، وفي الحديث غاية مقصودة وهو البرهنة على وجود الخالق .

وقد تحدّث القرآن عن المحسوسات والمعقولات .

فهو يتحدّث عن الظلّ وعن وجوده وخفائه ، واعتبر أنّ لكلّ جسم مادّي ظلال محسوسة تزيد وتنقص .

وحديث القرآن عن الأجسام المادّية في هذه الآية وأمثالها من معجزات القرآن العلمية .

ويستدلّ بالمحسوسات المدركة بالعين .

واعتبر القرآن المحسوسات دليلاً له في البرهنة على خالقها ، فيقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾[١] .

---

(١) يونس : ٢٤ .

وفي قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾[١].

وفي القرآن آيات كثيرة عن المحسوسات وصورها وبهجتها من حيث اللون والصورة والفنّ والابداع، ومن حيث الشكل: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾[٢].

ومن المعلوم أنّ من خلال التأمّل في هذه المحسوسات والمعقولات ـ أي ما يدرك بالحسّ مسموعاً أو مبصراً وما يدرك بالعقل ـ إلى أنّ الأشياء مادية وعقليّة ـ ما يدرك بالعقل وما يدرك بالحسّ ـ.

وأكثر من هذا يوصل العقل الإنسان إلى وجود قوّة فاعلة فعلت وأوجدت هذه الأشياء ونوّعتها وأبدعت في هذه المخلوقات فنّاً وصورة.

والاستدلال في القرآن يقسم إلى نوعين ليتلاءم مع أذهان سامعيه، فتارة يتحدّث عن المحسوسات، وتارةً عن العقليّات؛ لأنّ العقليّة التي عاصرها القرآن ليست على مستوى واحد، وما كان يدرك بالحسّ يسهل على تلك العقليّة، والمخلوق الحسّي يدرك؛ لأنّه تقع عليه أحد الحواسّ.

ولعلّ القرآن يكون من حديثه بالمحسوس دليلاً بهذا الشكل.

---

(١) النمل: ٦٠.

(٢) النحل: ١٣.

هذا محسوس يدرك بهذا الإبداع إذن من أوجده ؟ والسامع يفكّر ويسأل نفسه ويتأمّل من خلق هذا المحسوس بهذه الصورة وبهذا الجمال وأخرجه بهذا الابداع ؟

ويسأل نفسه ثانية: إنّ هذا المحسوس الذي أبصرته له أفراد وأشكال متعدّدة مختلفة من عددها وكثرتها ؟ ولا بدّ أنّ العقل وسلطانه سيوصله إلى نتيجة ، وهي إذن له خالق وله مصوّر خلق هذه الصور الحسّية المتعدّدة المختلفة ، ولها مبدع فنّان ماهر أوجد الإنسان بهذا الشكل وخلق غيره من الحيوانات والجمادات والأجسام الماديّة ، ووزّع عليها الأشكال والألوان والجمال واختلافها حتّى في اللون والمقادير .

وبهذا المستوى العلمي نطق القرآن وتحدّث طويلاً ، وبهذا المسلك العلمي العميق الدقيق يكثر القرآن أقواله عن حقائق الأشياء التي لا تدرك إلّا بعقل قوي مسلّح بقابليّة علميّة وهو الإعجاز العلمي الذي أدهش العلماء في عصرنا هذا ، فإنّ العالم مهما كان يقرأ القرآن ويتذوّق آياته لأنّها آيات علمية تسع العقل البشري فهو أوسع من العقليات التي قرأته بالأمس وتقرؤه في غد.

وهل هذا كان مألوفاً عند العرب ونطق به غير القرآن ؟

إذن نتساءل من خلال ذلك ونعيد السؤال السالف المتقدّم: إنّ في القرآن مستويات علميّة رفيعة ، مستوىً عقليّاً واسعاً ، ومناهج فلسفية

مقبولة ، وهو مع العقل ومع الفلسفة في أيّ عصر ، وفيه إعجاز فلسفي رفيع أدركه فلاسفة المسلمين ، فهل وجد القرآن ذهنيّة ذات قابليّة على تعقّل الأُمور الدقيقة وتدرك حقائقها وتتفلسف في الكون والإنسان والحياة والموت والوجود ، فطوّرها وغذّاها وأقام أدلّة علميّة لعقلية تدرك قول القرآن ؟

وبعبارة أُخرى : في القرآن إعجاز علمي يسع الزمن وتطوّره والذهن البشري واتّساعه.

فهل أدرك العقل العربي من القرآن ما أدركه من جاء بعدهم من المسلمين والمفسّرين وعلماء الكلام الذين قرءوا القرآن في عصور متأخّرة عن عصر نزوله ؟

وكيف وجد القرآن العقليّة العربيّة ؟ هل وجد فيها قابليّة علميّة وقوّة على التفلّسف ؟

والعرب هم السابقون إلى القرآن ، والعقليّة العربيّة هي التي تغذّت من ينبوعه ، وهو الذي سقاها وغمرها بفيضه ، وهي أسبق من غيرها بالاستنارة بنور القرآن الفكري والاجتماعي ، وهي الأُمّة التي كانت فيصلاً زمنياً بين عروبة الصحراء وبين الفجر الإسلامي الذي عاش الرسالة الإسلاميّة ونورها الذي أنار الذهن ودعاه إلى المعرفة .

وللإجابة على هذه الأسئلة ، ولمعرفة المستوى الفكري الذي كانت عليه العقليّة العربيّة لا بدّ لنا من مصدر نعتمد عليه ، ولا نملك

مصدراً إلّا دراسة الأدب العربي المنسوب إلى الأُمّة العربيّة ، أو الرجوع إلى المصادر التاريخيّة إن كانت ؟ أو كان لدينا مصادر تاريخيّة قديمة يوثق بها ، أو ندرس العقليّة العربيّة من خلال الآيات القرآنيّة ، واخترت القرآن مصدراً موثوقاً به في دراستنا للعقليّة العربيّة دون غيره ، ولا يمكن الاعتماد على ما يقال له الأدب العربي ، ولا يمكن الوثوق بما يقال له : التأريخ العربي .

لماذا اعتبر القرآن دون غيره ؟ وللإجابة على ذلك أُقدّم هذه المقدّمة :

لو أردنا الحكم على عقليّة شعب من الشعوب ومعرفة المستوى الذي عليه فليس لنا وسيلة أو مسلك يوصلنا إلى ذلك القصد إلّا بدراسة النتاج الفكري ، ومن ثمّ الحكم على تلك العقليّة وعلى ذلك الشعب بأنّه شعب متطوّر ، أو عقليّة ناضجة متفتّحة مدركة ، أو بالعكس ، ومثل هذا الحكم يجب أن يكون شاملاً لأكبر عدد من أفراد تلك الأُمّة ، وفي الغالب أنّ المفكّرين وذوي النتاج العلمي ما هم إلّا أفراد من تلك الأُمّة ، أي أُمّة فرضتها ، والأفراد المعدودون لا يمثّلون عقليّة تلك الأُمّة ، فإذا نظم الشعر ثلاثة أو أربعة أو عشرة في أُمّة أو في بلد فلا يمكن القول إنّ هذه الأُمّة أو هذا البلد بلد الشعراء ، أو كلّه بلد يزاول نظم الشعر .

وإذا نبغ في شعبأفراد فيالاختراع أو استخرج الدواء من المادّة أو من النبات مثلاً فلا يقال : إنّ جميع أفراد هذا الشعب ذو نتاج فكري .

وخير طريق وأفضل وسيلة لمعرفة دراسة المستوى العقلي لتلك الأُمّة إنّما هو بالملاحظة وبتأمّل سلوك أفراد تلك الأُمّة ومنطقها، ودراسة نتاجهم، وقدرة الأفراد في الإجابة، ودراسة عادات وتقاليد تلك الأُمّة، ومثل هذا يحتاج[1] إلى جهد ووقت ودقّة في معرفة ودراسة المعلومات، وأن لا تكون ملاحظات سريعة فإنّها لا تحقّق حكماً عامّاً يطمأنّ به أو يؤخذ به.

والحكم على العقليّة العربيّة ومعرفة المستوى الفكري الذي كانت عليه يوم بزغ نور الإسلام وسطع فجره وشعّ في أُفق ذلك المحيط، فأنار الذهنيّة وهداها نحو الإيمان بالله، وغلغل في أذهانهم الاعتقاد به.

كيف الطريق، وما هي الوسيلة، وما هو المصدر الذي يعتمد عليه في ذلك لمعرفة هذه العقليّة والحكم على أنّها عقليّة متفتّحة أو هي عقليّة متخلّفة مغلقة؟ ليس لنا إلّا أن نسلك أحد الطرق الثلاث:

١ ـ الأدب.

٢ ـ التأريخ.

٣ ـ القرآن.

الطريق الأوّل: دراسة آدابها وتراثها الذي يروي عنها وينسب لها،

---

(١) كما يضعه علماء الاجتماع في دراسة الشعوب وهو ما يطلق عليه مصطلح (الانثربولوجي).

أمّا الأدب لا يمكن أن يكون مصدراً يرجع إليه ويطمأنّ به ، ولا نملك أدباً عربياً يوثق به لنستطيع الحكم على هذه العقليّة من خلال دراسة الأدب الذي يقال له أدب عربي للأسباب التالية :

١ ـ إمكان كونه موضوعاً ومنسوباً لها ، أو قيل في عصور متأخّرة وضعه الوضّاع على لسان أُدباء عاشوا قديماً .

فقد نسب أدب كثير وكثير ، وروى عنها كثير ، وتعدّد الوضّاع .

٢ ـ ولاختلاف هذا الأدب في جوانبه وأفكاره وصياغته ولغته ومحتواه ودلالته .

٣ ـ ولاختلاف المؤرّخين في هذا الأدب ، فالرواة مختلفون فيه ، فهم بين مشكّك وبين مغالٍ فيه .

فقد ذهب إلى ذلك طه حسين(١) ، وهو زعيم مدرسة التشكيك في الأدب العربي ، وهو الذي وضع أمام كلّ قطعة أكثر من علامة استفهام في صحّة هذا الأدب المنسوب إلى العصر الجاهلي .

٤ ـ لقصور هذا الأدب عن حكاية الحياة العامّة أو المستوى الفكري الذي كانت عليه العقليّة العربيّة ، فلا يستطيع تصوير ذلك المجتمع بجوانبه وما فيه ، وما يقوم به أفراده من سلوك عامّ ، كما استطاع القرآن تصوير ذلك المجتمع بما فيه من تفاعل مختلف في أكثر من مجال وما فيه من طقوس .

---

(١) راجع كتابه في الأدب الجاهلي .

وهذا الأدب الذي يروي خاصّة الشعر فإنّه إذا استطاع تصوير وحكاية عن الحياة العامّة إنّما يصوّر لك الحياة جافّة غامضة منطوية على نفسها بعيدة عن المجتمعات المجاورة ومنعزلة عن الآخرين.

٥ ـ وهذا الأدب الذي يروى وينسب لهذه الأُمّة إنّما هو أدب لا ينسب لأكبر عدد من أفراد هذه الأُمّة والأُدباء الذين قالوا الأدب إنّما هم معدودون قليلون، وما ينسب للعرب القدماء إنّما هو أدب وجيز وقصائد قليلة معدودة كيف وهي أُمّة جبّارة كبيرة كثيرة العدد! وهل نملك تلك الثروة الأدبية الكافية لدراسة عقليّة أُمّة، أو لتكون مصدراً نعتمد عليه لدراسة أُمّة؟

وهل وصل إلينا أدب عربي بهذه الكثرة وينسب لأكبر عدد من أفراد هذه الأُمّة؟

كيف وقد قيل: إنّ العرب كلّهم أُدباء شعراء نقّاد يقوّمون الشعر الحسن المقبول ويضعون مستويات مختلفة لشاعر وآخر وقصيدة وأُخرى. وكلّهم قصّاصون، وكلّهم خطباء، وإنّ العربي ولد له ذوق شعري وقابليّة بالفطرة على النقد والاستحسان والتقييم، ومعرفة الحسن ومعرفة المبتذل منه، فأين لنا تلك الكثرة من الأدب في الشعر والخطب لتروي لأكبر عدد من هذه الأُمّة ولتدرس هذه الكميّة، وننطلق إلى الحكم على هذه العقليّة التي ينسب إليها؟

رغم هذا وما ورد إلينا إنّما هو قليل وقليل وهو عاجز عن التعريف

بعقلية هذه الأُمّة ذات العدد الكبير ، وبهذه الأُمّة الكبيرة التي سكنت هنا وهناك.

٦ ـ وقد اختلفت لهجات هذه الأُمّة وطقوسها وعباداتها وعاداتها ، ولا نملك أدباً يتحدّث عن هذه الأُمّة جمعاء ، ولم يصل إلينا هكذا أدباً حاكياً(١).

وما ورد إلينا من الأدب يقال له أدب عربي من غير تفصيل في هذه النسبة بين العرب سكّان الجنوب ، أو العرب سكّان الوسط أو الشمال ، أو العرب الرحّالة تطلب العشب والماء ، ومعلوم أنّ الأُمّة العربيّة مرّت بفترات عديدة ومراحل ، وهي بين ذلك متنقّلة من مكان إلى آخر ، وهي في ذلك تتطوّر وتختلف في أحوالها وتتأثّر بغيرها ، فكيف نحكم على عقليّة أُمّة كبيرة مرّت بعصور وفترات من خلال تراث ينسب إليها بصورة إجمالية ولا يعلم لأي قبيلة ، وفي أي فترة قبل هذا الأدب ؟

٧ ـ وأدب يروى عن العرب بما هم عرب قد لا يكون أدباً صادراً عن هذه الأُمّة بخصوص الفترة المقصودة لنا وهي فترة ما قبل الإسلام ، وهي الفترة التي استقرّت فيها العرب أو حاولت فيها الاستقرار وأدركت فيها الدعوة الإسلاميّة ونزول القرآن ، ومعلوم لديك أنّ أيّ أُمّة تعيش أجيالاً وتمرّ بفترات زمنيّة طويلة تتطوّر وتتغيّر وتتأثّر ، فكيف بالأُمّة العربيّة التي تغيّرت وتطوّرت وبقي لها أدب ينسب ولا يعلم بأيّ فترة قيل هذا الأدب ؟

---

(١) كما هو عليه الدكتور طه حسين في التشكيك في الأدب الجاهلي.

وعقليّة هذه الأُمّة يوم نزول القرآن في محيطها تختلف كثيراً عمّا كانت قبله بفترة زمنيّة من حيث الإدراك والوعي ، فإنّه يوم نزوله وشياع آية بينها كانت تدرك آياته ، وكان فيها قابليّة الأخذ والاستعداد الذهني حتّى استطاع أن يغلغل فيها الدعوة الإسلاميّة .

وأنّ أيّ أُمّة تتغيّر عقليّة أفرادها وتنمو بين مدّة وأُخرى وتتأثّر بتيّار وآخر وفكرة وأُخرى واتّصال أو انقطاع ، والأُمّة العربيّة عاشت فترة طويلة ما قبل الدعوة[١] الإسلاميّة ، وفترة الدعوة ، وفي ذلك اختلاف وتغيّر وتيّارات ونتاج أدبي مختلف .

وما ورد عن العرب شعراً ونثراً أو خطبة وأمثال وحكايات لا يعلم زمانه ، وهو مختلف من حيث القوّة والضعف والنسج واللغة ، وهو من حيث المجموع يقال له أدب عربي ، وينسب لهم .

فكيف يوثق بهذا الأدب ولا نعلم الفترة التي فيها قيل ؟ ولا زمن القائل ، فقد تروى قصيدة لشاعر ولا نعلم زمانه ومكانه ، أو تنسب قطعة بلغة خاصّة لقبيلة ولا نعلم بموطن هذه القبيلة والفترة التي عاشتها تلك القبيلة ، ولا نملك أدباً عربياً بلغة عربية شاملة ، وينسب

---

(١) فقد عاش الرسول أربعين سنة قبل إعلان الدعوة كان فيها منعزلاً عن هذه الأُمّة ويعيش في تفكير وتأمّل استعداداً للقيام بدعوة فيها رفع مستوى هذه الأُمّة ، وهذه الأُمّة التي عاش فيها ذات تفكير وعقليّة خاصّة في هذه الفترة فقط .

لأُدباء عرب عاشوا فترة ما قبل الإسلام وقالوا هذا النتاج في خصوص هذه الفترة المحدودة ، وهي ما قبل نزول القرآن وأدركوا عصر نزوله.

٨ ـ وإذا ملكنا هكذا أدباً أو روي لنا ونسب لهذه الأُمّة وقيل في هذه الفترة ، وإذا اعتمدنا عليه فهو لا يوصلنا إلى درجة الوثوق القطعية ، ويصوّر لنا عقليّة هذه الأُمّة ، ونعرف من خلاله المستوى الفكري لعقلية هذه الأُمّة يوم نزل القرآن ، وما يدريك في هذا الأدب بأنّه قيل في فترة ما قبل نزول القرآن بألف سنة أو أقلّ أو أكثر ، رغم هذا فهو لا يستطيع تصوير عقليّة هذه الأُمّة التي ينسب إليها لماذا ؟ ومن حقّك السؤال والتعجّب ، وما هي تلك الصورة التي يعكسها لنا هذا الأدب ؟ فليس في أدبنا رسم لتلك العقليّة ، أو الإحاطة بها عقليّاً ، أو من حيث الشعور والإدراك والتأمّل ، فلا نملك أدباً واقعيّاً وإذا كان فيه تلك القدرة فإنّما يصوّر الحياة البدويّة التي عاشت الصحراء ، ويصوّر شخصيّة الرجل العربي خشونة وشدّة ورجولة وقوّة ، وإنّه ذلك الإنسان الذي ملك الصحراء ، وهو الإنسان البدوي بطباعه الموروثة ، الطباع القديمة التي كان عليها هو وآباؤه فلا يهاب الليل ولا العدو ، وهو ذلك الإنسان الفخور المعجب بذاته وأفكاره وأنّه ابن قبيلته.

ومثل هذا الأدب ليس واقعيّاً ، وأين هو ذلك الأدب الذي يكون مرآة تعكس عقليّة الإنسان العربي وذوقه وإدراكه ونفسيّته وفلسفته

وقدرته الفكريّة وعقيدته ؟ لأنّ الأدب مرآة لعقلية الأديب ، وأديب الأُمّة مرآة لعقليّتها ، والأدب بعقليّته يختفي وراء نتاجه الفكري ؛ لأنّه مأخوذ من شعوره ومشاعره وأحاسيسه .

وأدبنا المنسوب إنّما هو مجموعة أحاديث عن الإنسان البدوي ابن البادية والصحراء ، برجولته وخشونته وعاداته التي ورثها عن أبيه وجدّه وقبيلته .

ومثل هذا الأدب لا يمكن أن يكون مصدراً يصوّر عقليّة هذه الأُمّة التي نحاول معرفة مستواها العقلي ، وليحكم عليها أنّها متخلّفة أو أنّها أُمّة وصلت إلى مرحلة من النضج الفكري فلا نجد أدباً في تلك المرونة والقابلية والوضوح لنعتمد عليه في دراسة هذه الأُمّة .

وأمّا **الطريق الثاني** (التأريخ) :

فقد فتّشنا عن وجود تاريخ قديم صحيح نرجع إليه ونعتمد عليه ، فلم نجد تأريخاً يوثق به ، وبعبارة أُخرى : لا نملك وثائق تاريخيّة يوثق بها تصوّر لنا العقليّة العربيّة ومستواها الفكري ، وأين هذا التاريخ الذي كتب عن معرفة ودراية وبأقلام حيادية ؟

والذين أرّخوا الحوادث كلّها وكتبوا عن هذه الأُمّة إنّما اعتمدوا على الرواية ، ولم يشاهدوا أي حادثة ، ولم يقفوا عليها .

والذين قالوا وكتبوا عن هذه الأُمّة فبين من حكم لها أو عليها ، ومن بين من تحيّز فقال ما طاب له ، ونسب إليها ما اختاره بغير حساب ،

وأرّخوا كلّ شيء ، ولا أدري كيف جمعوا التاريخ ، وهل اعتمدوا على مستمسكات تاريخيّة كما اعتمدوا على القصص والحكايات والحوادث المروية بأكثر من واسطة ؟

وعصر المؤرّخ بعد عصر الحادثة ومكانه أبعد منها ، والمؤرّخ إنسان يتأثّر وهو ذو نزعة وذو رغبة ، فقد يضع وقد ينسب تاريخ الأُمّة العربيّة في خصوص الفترة ما قبل الدعوة الإسلاميّة ؟ إذن لا أدب ، ولا تاريخ ، ولا بدّ من الرجوع إلى **الطريق الثالث** وهو القرآن.

والقرآن خير مصدر لدراسة العقليّة العربيّة ، ومن خلال آياته سنصل إلى الإجابة المقبولة ، ولمعرفة المستوى الفكري الذي كانت عليه العقليّة العربيّة التي تصارع معها القرآن في دعوته إلى الله تعالى.

ولم تستطع الثبات أمام قوّة منطق القرآن وحججه وبراهينه يوم دعاها إلى الله تعالى.

والقرآن هو الذي كلّم العقل العربي قبل غيره.

وهو الذي غلغل المفاهيم الإسلاميّة في هذه العقليّة فهو مصدر يختلف عن غيره من المصادر الأُخرى ، وهو الذي صوّر هذه العقليّة قبل غيره ، وغذّاها وسقاها الإيمان.

وآيات القرآن غذاء روحي ، وتوعية للعقل للشعور بالله ، بالكون والنفس والوجود ، وهو تنبيه للشعور والتأمّل فيأسرار الطبيعة الخفيّة ، وفي هذا القرآن معاجز ومعاجز ، وفي القرآن أكثر من ينبوع في العلوم.

والمتأمّل فيه اليوم يدرك أنّ القرآن يتكلّم بعقليّة اليوم ، وكأنّه لم يكلّم العقليّة العربيّة قبل قرون وهم أهل فصاحة وبها عرفوا.

والمتأمّل فيه سيصل إلى أنّ القرآن لم يكلّم العقليّة التي عاشت الصحراء وكأنّه أنزل على مجتمع متقدّم فكرياً ، وكأنّه يخاطب فلاسفة ومفكّرين ، أو طبقة ذات وعي ، وقد تلي عليهم من قبل ونبّه عقولهم إلى ما خفي عليهم من أسرار الوجود وطبيعة الفرد وما يراه بالعين وما لا يراه.

إنّه قرآن الدهر ، إنّه لم يترك صغيرة ولا كبيرة ولا حادثة إلّا أحصاها ، ولا أُسلوباً كان عند العرب إلّا تحدّث فيه.

فلنرجع إلى هذا القرآن ولنقتبس من آياته وفيها حركة ، وهو الذي سجّل أقوال الأُمّة العربيّة عندما فاجأها بالدعوة إلى التوحيد بالله تعالى ، وهو الذي أقام لها أدلّة رصينة حكيمة مقبولة ، أدلّة عقليّة منطقية على بطلان ما هم عليه ، ودعاهم إلى عبادة جديدة ، وهو الذي قرّب هذه العقليّة إلى ساحة التوحيد.



مدخل البحث

دعنا نقرأ هذه الفصول القرآنيّة ونسأل أنفسنا: مَن هو المقصود بها ؟ ومن هو المخاطب بها يوم نزولها ؟ وماذا تصوّر هذه الآيات ، ومَن هو الذي يختفي وراءه مدحاً أو ذمّاً ، وأين كان نزولها ، وما هو سبب نزول هذه الآيات ؟

ولو رجعنا إلى القرآن لنقرأ آياته لوجدنا أكثر من آية تحمل صفات ونعوت وعبارات الذمّ ، وأكثر من حملة شديدة بألفاظ خشنة يوجّهها القرآن إلى الأُمّة العربيّة بالذات ، وكلّها تحمل المعاني التي نرى من خلالها صورة لتلك العقليّة:

١ ـ ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾[١].

٢ ـ ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ

---

(١) فاطر: ٢٢.

بِهادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾[١].

وغيرها آيات كثيرة ترد فيها عبارات شديدة في الذمّ كقوله تعالى: ﴿ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ، ﴿ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ، ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، ﴿ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ . ونجد صيغ الذمّ تتكرّر في أكثر من آية ، ونجد في القرآن صيغ التعجّب والاستغراب في أكثر من فصل ، ومن خلال ذلك تدرك ضعف القوى العقليّة وضيق إدراكها ، يصفها القرآن تارة:

بالكفر ، والبعد عن الهدى والإيمان ، والفسق ، والكذب ، والسفه ، وعدم الإدراك لحقائق الأُمور.

وتكرّرت عبارات تحمل الضعة والتهديد والتحدّث عن العقليّة العربيّة: كلّها ذمّ وكلّها تعجّب:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ، ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ ، ﴿ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ، ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ، ﴿ لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ ﴾ ، ﴿كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، فأسألك من هو المقصود ؟

وتحدّث القرآن عن الطبيعة العربيّة ونفسيّة الإنسان العربي ، وما

---

(١) الروم: ٥٢ و ٥٣ ، ونفس هاتين الآيتين بالذات تردان في سورة النمل ، وما في ذلك إلّا للتأكيد على ذمّ تلك العقليّة المقصودة ، ونفس السورتين نزلتا في المدينة.

فيها من عناد ، وما فيها من تعصّب ، وأنّها نفس لا تعرف الرقّة والرحمة جبلت على القسوة والشدّة.

وكم في القرآن من حديث عن طبيعة هذا الإنسان العربي وشعوره ومشاعره وأفكاره العامّة ، وما يؤمن به ، وما لا يستطيع الاعتقاد به من الأمور ؛ لأنّه فوق عقليّته ، ولا قدرة له على إدراكه.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً ﴾(١).

وفي آية أخرى:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾(٢).

فالإنسان العربي يؤمن بما ألفه من أفكار ، ويتقبّل ما هو شائع في محيطه ، واعتقده جدّه وأبوه من قبل.

أمّا ما هو جديد من معتقد ، وما هو وراء هذه الحياة ، فيجده صعباً ولا يدركه ذهنه ، فهو بين إيمان بشيء وبين كفر بآخر صعب جديد لا يستطيع وعيه وإدراكه.

ويتحدّث القرآن عن الكثرة والقلّة من الذين يتقبّلون أحاديث العقيدة والدعوة إلى الإيمان ، والذين يعطون ميثاقاً وعهداً والتزاماً بالإيمان.

---

(١) البقرة: ٩١.

(٢) البقرة: ٩٩.

﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(١).

ويوجّه القرآن خطابه لهؤلاء الذين يعيشون النفور والجمود، والذين أصرّوا على البقاء على ما هم عليه، والبعد عن الإيمان، ورأوا البقاء على عقيدة الأب والجدّ.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

ويستمرّ القرآن بأحاديث عن العقليّة العربيّة وطبعها بأكثر من طابع، ويصفها بأكثر من صفة.

١ ـ تؤمن بالمحسوس وبالمادّيّات، وما تراه وتدركه بالعين، وكأنّها عقليّة مادّيّة بحتة لا تؤمن بما لا تراه بالعين، وتشاهده، وتلمسه، أو تسمع صوته ليكون ملائماً والذهنيّة العربيّة، فحكى ما كان فيها وفي غيرها:

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً ﴾(٣).

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾(٤).

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾(٥).

---

(١) البقرة: ١٠٠.

(٢) البقرة: ١٠٣.

(٣) البقرة: ٥٥.

(٤) البقرة: ١٠٨.

(٥) البقرة: ١١٨.

وتدرك الصراع الفكري القديم الذي تحدّثت عنه الكتب الدينية عن الإنسان المؤمن والعقل الجاحد الكافر، وعن دعوة الأنبياء إلى الله، فإنسان مؤمن وآخر كافر به، كما تدرك تأثّر العقل العربي بالأفكار القديمة.

وقد حكى القرآن لنا عن تأثّر العقليّة العربيّة بالتراث الفكري الذي كان في العقول القديمة، وهو الإيمان بالمادّيات وبالمحسوس دون غيره. وقال العرب كقول سابقيهم من الأُمم من رؤية الربّ بالعين سبحان الله وتعالى عمّا يتصوّرون ويصفون أنّها عقول ضيّقة بسيطة.

ويرينا القرآن صورة أُخرى للعقليّة العربيّة وهي سرعة إيمانهم وتقبّلهم بالمادّيات المحسوسة أكثر وأسرع من إيمانهم بالمعنويّات التي لا تدركها العين، ومن خلال ذلك نستطيع طبع العقليّة العربيّة أنّها عقليّة كانت تؤمن بالمحسوسات وما تراه، والإيمان بالمعقول عندهم صعب.

٢ ـ الطابع الثاني الذي طبعه القرآن للإنسان العربي: الشدّة والعصبيّة والقسوة.

ولكنّ القرآن خلق طبيعة جديدة، وأزال تلك القديمة، وصاغ نفسيّة الإنسان العربي، وبلور عقليّته وفكره، وصقل شعوره القديم، والإنسان العربي الذي عاش القرآن في نفسه، وأخذ نصيباً من آياته يختلف بكثير عن الإنسان العربي القديم قبل نزوله.

كما تختلف عقليّته وإدراكه ومشاعره وأحاسيسه وما يؤمن به قديماً.

فالإنسان العربي القديم تعلّق بالأصنام تعلّقاً شديداً ، ويفخر بها ، ويرجع إليها ، ويعطيها ما لا وجود له فيها من المدح والأسماء والنعوت ، وكم ورد في حكايات عربية من فخر وأقوال عن هذه الآلهة والعقليّة العربيّة التي تعلّقت بالأصنام وعبدت هذه الحجارة ، وفي ذلك فلسفة ، وقد حكى القرآن ذلك كلّه ، وبيّن الدوافع النفسيّة والعوامل الخارجيّة الدافعة للإنسان العربي لهذه العقيدة.

وهذه العبادة التي راجت ونشطت واتّسعت حركتها وتنافست القبائل العربيّة في العناية وإخراج الآلهة والتحيّز لها ، والتمسّك بها ، وتعلّقوا بها تعلّقاً ، وأكّدوا على حبّها والرجوع إليها في الشدائد والأيّام السود ، لماذا ؟ يذهب العقل العربي إلى وجود الله ، ولكن لا يمكن الوصول إليه ، ولا إدراكه حسّياً ، ولا الإحاطة به لعظمته ، ولتصوّر العقل وضيق الفكر للوصول إلى كنه هذا الربّ ، فآمن بالواسطة بين الخلق وواجب الوجود الذي وسعت رحمته كلّ شيء وكلّ عالم ، وهو فيض الوجود من الأشياء فيدرك فكيف بالعقل العربي إدراك واجب الوجود وهو لم يعرف عن نفسه من خلقها وركّبها وأوجدها في هذا القالب ؟ إذن ماذا ترى أن يصف القرآن هذه العقليّة ؟

وقد أكثر القرآن في وصفها بعدم الإيمان تارة وعدم العلم والشعور.

أقول: لو رجعنا للقرآن لوجدنا في آياته الإكثار من الوصف الذي ينسبه لعقلية هذه الأُمّة، الأُمّة العربيّة، وعن طبيعة ونفسيّة الإنسان العربي.

وهذه الصفات تدلّ على ماكان في تلك الطبيعة وتلك النفسيّة.

وحديث عن الحياة العامّة والظواهر الاجتماعيّة وتعليق ذلك الإنسان العربي بما ورثه عن أبيه وجدّه.



الظواهر العامّة في المجتمع العربي

١ ـ تحدّث القرآن عن أكثر من ظاهرة كانت منتشرة في المجتمع العربي ، ومن خلال الآيات سنجد في المجتمع العربي مجموعة من الطباع قد جبل عليها الإنسان العربي ، ونتعرّف على قدرة القرآن على الإحاطة بها والتدوين ، ونتعرّف أيضاً على قدرة القرآن في العلاج والقضاء عليها في أقصر مدّة زمنيّة .

إنّ القرآن قاموس عامّ دوّن ما كان عند العرب ، وسجّل محيط أرّخ الحضارة العربيّة في عامّة جوانبها ، وعكس الطبيعة العربيّة ونفسيّة وشعور وعادات الإنسان العربي ، وما كان في ذلك المجتمع من أمراض اجتماعيّة شائعة ؛ لأنّه هو الذي نزل في المحيط وخاطب سامعيه العرب بلغة عربية ، وتكلّم معهم بأساليب متداولة .

وهم الذين خوطبوا به قبل أن يخاطب غيرهم ، وللعرب شرف

السبق إليه وقراءته ، وشرف الخطاب قبل أن يقرأ غيرهم هذه الآيات ، فذكر ما كان في تلك النفسيّة ، وما كان في ذلك المجتمع. إذن ما هي الظواهر العامّة التي ذكرها القرآن وأرّخها ؟

١ ـ ظاهرة الكفر والشرك وكثرة الأصنام.

٢ ـ ظاهرة النفاق والكذب والتكبّر.

٣ ـ ظاهرة التأخّر العلمي والأُميّة وموت الثقافة.

٤ ـ ظاهرة وأد البنات والقسوة على الأولاد.

٥ ـ ظاهرة التعصّب والعناد.

وهناك ظواهر وعادات وتقاليد وفلسفات موروثة أدركها القرآن وعاشها وتنازع معها ، وأرّخها ودوّنها ، وحمل على القائمين بها ، والفاعلين والموصوفين بها.

ولو رجعنا إلى القرآن لوجدناه يقوم بحملات كثيرة يوجّهها نحو هذه الأُمّة ، ويستطيع أن يتغلّب على خصمه ، ويستطيع القرآن أن يقوم بالإصلاح الاجتماعي وتحرير العقليّة ويقضي على تلك العادات والطباع.

١ ـ فيهاجم الكذّابين والرأسماليّين والمرابين والمنافقين والدجّالين في ذلك المجتمع ، والمتحكّمين وذوي النفوذ والسلطان وأولياء الأُمور.

٢ ـ ويهاجم أعمالاً وأفعالاً ويعتبرها أعمالاً ضارّة في الفرد والمجتمع ، ويهدم علاقات ، ويفصل روابط كثيرة ، فيشنّ حملة على

التكسّب وبيع الخمور وشربه، واللعب بالقمار والأزلام والجهل: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾[١]، ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾[٢].

ويضرب ضربة قاضية هؤلاء المتعلّقين بالأصنام تعلّقاً عشوائياً بغير وعي ويدعوهم إلى العقل.

كما لم يترك المصلحة العامّة ولم يهملها فشنّ حملة على المتلاعبين بالأسعار والموازين والاحتكاريّين والمتلاعبين بأرزاق الأُمّة رحمة بالطبقة البائسة، وعقد القرآن سورة أسماها سورة المطفّفين.

ومن هذا وذاك نستظهر وجود طبقة رأسمالية ووجود متنفّذين في المجتمع العربي، ونجد حملة شديدة عنيفة يشنّها القرآن على المنافقين، وعقد سورة أسماها المنافقين، حرباً على النفاق، فيعطي القرآن صورة واعية لنفسيّة هؤلاء، والصفات التي اتّصف بها هؤلاء، وما يجدونه في باطن نفوسهم.

ويقوم بهذه الحملة عليهم ويقدّم العلاج للقضاء على هذه الظاهرة، وبقي نفر قليل وقليل جدّاً في الزوايا.

٣ ـ وفي القرآن ثورة واضحة على المفاهيم والمقدّسات، والثورة القرآنيّة غيّرت المفاهيم والمصطلحات، وحطّمت وضعيّات قائمة،

---

(١) الزمر: ٦٤.

(٢) يونس: ٦٩.

وأنماطاً سلوكيّة كان يمارسها الإنسان العربي ويفعلها، وكان مجبولاً عليها منذ نعومة أظفاره وتصدر عنه: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾[١].

فالكذب شائع، وهو داء اجتماعي، ونشطت حركة الكذب في الفترة التي بدأ فيها القرآن ينتشر وتشيع آياته والكذّابون حاربوا الدعوة الإسلاميّة، وكذّبوا القرآن؛ أنّه ليس من الله، وكذّبوا الرسالة والرسول؛ أنّه ليس بنبيّ وإنّما هو ذو مطامع تدفعه، وذو داء، ومعتوه، وكذّبوا بيوم القيامة ونجد في القرآن أكثر من آية وهي حرب لظاهرة التكذيب: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[٢].

٤ ـ ويقف القرآن موقف التهديد أمام هذه الظاهرة، ويعالج هذه الطبقة ويشنّ حملة ضدّ المكذّبين الذين حاربوا الدعوة الإسلاميّة بتكذيب الرسالة، وتكذيب يوم الجزاء والبعث، وقولة هؤلاء الكذّابين في تكذيب الرسالة الإسلاميّة كما حكاها القرآن وما يقوله الرسول إنّما هي أقوال قديمة وحكايات سطّرها الأوّلون ولا أصل لها، وهو سلاح اتّخذوه، وهو التكذيب[٣].

---

(١) الصافّات: ٦٩ و ٧٠.

(٢) المطفّفين: ١٠ ـ ١٣.

(٣) راجع مجمع البيان ٣٠: ٥٦، فيه زيادة تحقيق وفائدة.

ويقف القرآن حرباً على الأُمّيّة والجهل ويدعو إلى المعرفة والعلم.

٥ ـ ووجد القرآن ظاهرة من أهمّ الظواهر، ومشكلة من أهمّ المشاكل تعقّداً ورسوخاً وأكثر انتشاراً، وهي ظاهرة الكفر والشرك، وتحدّث القرآن عن هذه الظاهرة تفصيلاً في أكثر من آية.

وعقد سورة أسماها سورة الكافرين، وكم من القرآن من حديث وحديث وموقف بعده مواقف مع الكافرين، وقام بحملة شديدة ضدّ هذه الظاهرة واعتبرها أخطر داء يهدّد الإنسان في وجوده هو داء الكفر، وفي مذهب القرآن إنّ الكفر جاء إلى ذهن الإنسان وتركّز في نفسه نتيجة عوامل خارجيّة وأسباب محيطيّة كان لها السبب في عزل الذهن عن الإيمان بالله تعالى.

إنّه الداء، إنّه الخطر، إنّه هو الكفر، ولا كفر في بلاد الإسلام لا استقرار له في بلاد التوحيد، كيف ودعاته ومروّجوه كثروا ونشطوا فدعا القرآن إلى الجدل والتوعية.

٦ ـ وفتح الباب ودعا إلى المعرفة والتبصّر والوصول إلى الحقيقة، وكيفيّة إيصال هذا الإنسان إلى ربّه وإخراجه من عبوديّة الشرك إلى الله خالقه ورازقه، والإنسان أبعدته عوامل وأسباب ودعايات عن ربّه وعزلته عن الله تعالى؟

ويجد القرآن قوماً تعلّقوا بهذه الأوثان، ويجد كفّاراً نشّطوا حركة الكفر والكفّار.

ولعلّك تتألّم لو قلت: إنّ في المحيط العربي كفراً وشركاً، وكون الإنسان العربي ورث الكفر والأصنام وراثة وتعلّق به.

كيفيّة إزالة ذلك وتطهير ذهن هذا الإنسان من هذه الرواسب الموروثة؟ وكيفيّة العلاج لهذا الداء الذي استفحل في جسم ومشاعر الفرد العربي إلّا بعاملٍ قوي بالتوعية والتنوير وخلق جيل مفكّر واعٍ، إلّا بإيصال العقليّة العربيّة إلى مستوى من التفكير الجديد، ورفع مستواها إلى عالم الهداية والنور، عالم المعرفة، عالم تكوين عقليّة متفتّحة سندها البرهنة على شيء وإقامة البرهان على خطأ شيء وصحّة آخر، وليس من سبيل إلّا الدعوة إلى العلم، وخلق جيل يشتاق إلى العلم.

كيف السبيل إلى ذلك وقد وقفت في طريق القرآن عقبات وصعوبات، ووجد أكثر من طبقة مختلفة نفساً وعقلاً وسلوكاً ورغبة وأكثر من عقيدة باطلة بناؤها السخافة والظلام الفكري، وأساسها وقوامها الوراثة عن الأب والجدّ.

في العرب من يذهب إلى إنكار الله.

وفي العرب من يذهب إلى وجود شريك.

وآمن آخرون بالواسطة وهي التي تقرّبهم إلى الله تعالى.

وقسم اعتقد بوجود ملائكة وهم بنات الله، هذه المعتقدات الباطلة، كيف يقوم القرآن بإبطال هذه العقائد السائدة؟ وكيف يقوم

بتطهير هذه الذهنيّة ؟ إلّا بإعداد ذهنيّة تدرك ما يقوله ، وتفهم ما يريد تفهيمه من عقيدة صحيحة جديدة ، وأنّ الله هو الخالق ، وهو له العبادة دون غيره ، وقام القرآن بالدعوة ونجح في الدعوة إلى الله .

ويعترض طريقنا السؤال الآتي وأسئلة فرعية أُخرى وهي :

١ ـ هل دعا القرآن ونجح في دعوته في مدّة زمنيّة وجيزة ؟ وما هي أسباب النجاح ؟

٢ ـ ما هي المخطّطات التي سلكها ونجح في دعوته وأدخل الأُمّة العربيّة إلى ساحة الإيمان والاعتراف بالله ؟

٣ ـ وما هي العقبات التي اعترضت طريق الدعوة ، وكيف اجتازها القرآن وتغلّب على المشاكل ؟

٤ ـ وما هي المراحل التي قطعها والوسائل التي قدّمها قبل الدعوة ؟

٥ ـ وكيف برهن القرآن على وجود الله ، وهل استطاع أن يقنع العقليّة العربيّة بأنّ الله هو ربّكم ؟ وما هي أدلّة القرآن التي أقامها ونجح في الدعوة إلى الله ، وأزال الكفر ، وطهّر الأرض العربيّة من الشرك وأزال الأصنام عنها ؟

* وللإجابة على هذه الأسئلة ، ولغرض الوصول إلى نجاح الدعوة وحقيقة الدعوة ، وأنّها دعوة إلى الله ، وأنّها دعوة ناجحة وبرهنت على نجاحها وعلى بقائها وخلودها ، وأنّها دعوة حكيمة أحكمت وكانت آخر دعوة إلى هذا الإنسان ، وهي تساير تطوّره ورقيّه ونموّه ومتطلّباته ووضع وسائل السعادة له .

أقول: هي صهرت الإنسان العربي بالأمس من الخرافات وأعطته كلّ وسائل القوّة الذهنيّة والإحساس والشعور، وهي التي تعطي الإنسان المسلم اليوم وسائل الوعي والتحرير والسير نحو مستقبل فيه سعادة الفرد.

* دعوته إلى التوعية والتحرّر الفكري والعلم، قام القرآن قبل إقامة أدلّته على وجود الله وهي مرحلة ما قبل الدعوة، قام بإعداد الذهنيّة إعداداً وبثّ كلّ وسائل التوعية والتنبيه واليقظة، فعبّأ العقليّة العربيّة ونوّرها، وفتح أمامها أبواباً جديدة: باب العلم، ودعا إلى دخوله، وأوجب التعلّم وفرضه فرضاً، ودعا إلى التفكير في النفس والكون والوجود والحياة، وما يحدث وما يوجد وما يزول، وإلى محاربة التقاليد والعادات والعصبيّة القبليّة، ودعا إلى التبصّر والتأمّل في الأُمور، وأسباب وجودها وحدوثها، والغاية من وجود هذا الكون وهذا الإنسان، ودعا إلى تحكيم العقل والتجرّد والانسياق أمام الرغبة ووراء العاطفة، وذمّ الجهل، ومدح العلم والعلماء، وجعل الفضل للعلم، والأفضليّة للعلماء، وأنّهم الطبقة العليا؛ لأنّها المفكّرة الواعية.

وحاول القرآن في دعوته إلى الوعي أن يخلق جيلاً جديداً سلاحه العلم، ويقضي على المخلّفات التي عاشت الجهل والعصبيّة القبليّة والأنانية، وعلى العقول المظلمة.

إنّ مرحلة ما قبل الدعوة هي مرحلة إخراج ذهنيّة من الظلمات إلى

النور ، ومن الجهل إلى المعرفة والعلم ، ومن الجمود والانغلاق إلى القوّة والقدرة على التأمّل والتفكير .

والفضل كلّ الفضل إنّما هو يرجع إلى القرآن .

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(١) .

قام القرآن بمرحلة ما قبل الدعوة للقضاء على التعصّب القبلي الذي كان رائجاً مطبوعاً في النفس ، وعليه جبلت ، وفيها غرس ، وصيغ الفرد العربي صياغة على التعصّب لقبيلته ولقومه ولعقيدته ولو على الباطل ، ولكلّ ما ورثه وجاء إليه عن سلفه وما وصل إليه وتحدّر عن أُسرته وغلغل في ذهنه ، أنّ هذا الصنم معبود أبيك القديم وجدّك الأكبر ، وهذه البئر هي لقومك ، وهذه الأرض هي لك وعليها نشأ أبوك وجدّك وأخذها بقوّته ورجولته ، وأنت ابن هذه الأُسرة .

فتعلّق بأُسرته وبيئته ومحيطه وأرضه ومعبودات قدّسها تقديساً عشوائيّاً .

وإذا بالقرآن يدعو إلى التفكير في النفس والكون ، وأعلن القرآن نداءه :

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ

---

(١) إبراهيم : ١ .

الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[١].

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَا خَلَقَ اللهُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾[٢].

وإذا بالقرآن يعلن قولته ويهدم القيم القديمة والزعامات التي كان أساسها القوّة والقسوة والغلبة والتحكيم والاستبداد، ويرى أفضليّة هذا الإنسان على أخيه الإنسان إنّما هو بالعلم والتقوى، ويرى القرآن أفضليّة العالم على الجاهل:

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٣].

كما لا مساواة بين الظلمات والنور، لا مساواة بين العلم والجهل، والإيمان والضلال، ولا مساواة بين الظلّ والحرور[٤].

وبدأت حياة جديدة وتفكير جديد في النفس والكون بدعوة من القرآن.

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَا خَلَقَ اللهُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾[٥].

---

(١) الملك: ٣ و ٤.

(٢) الروم: ٨.

(٣) الزمر: ٩.

(٤) وفي هذا المعنى أكثر من آية جاءت في القرآن.

(٥) الروم: ٨.

أدرك القرآن إنّه لا يستطيع تحقيق أي ثمرة مقبولة، ولا ينجح في دعوته إلى الله إلّا إذا قام بالتوعية والتعبئة والإعداد لغرض الوصول إلى نتيجة إيجابيّة.

وكيف يستطيع القرآن أن يدعو عقليّة لا تستطيع فهم أقواله، وهضم أدلّته وأفكاره؟

فلا بدّ من القيام بالتوعية الذهنيّة لرفع مستوى هذه الذهنيّة إلى فهم لغة الداعي وكلامه، وتدرك أدلّته، وتتقبّل دعوة الداعي.

وبعد نجاح القرآن في هذه المرحلة مرحلة التوعية.

* بدأ يقدّم دعوته بأدلّة واضحة ويصول على خصومه، وتقسم الأدلّة القرآنيّة إلى نوعين:

١ ـ نوع فيه ملائمة للعقليّة العربيّة على البساطة والوضوح والجلاء، أدلّة تدرك بلا تكلّف.

﴿ **وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** ﴾[١].

٢ ـ ونوع من الأدلّة يترقّى القرآن إلى مستوى رفيع وتأمّل عميق فوق ذهنيّة الإنسان العربي. وهذا النوع لا يدركه إلّا العالم المفكّر.

---

(١) الزخرف: ١١ ـ ١٣.

يستدلّ القرآن بالآثار المحسوسة ، وبالنظام الدقيق الذي نظمت فيه المخلوقات.

ويستدلّ بزوال وتجدّد وتحوّل من حالة إلى أُخرى كاختلاف ظلال الأجسام ، وتبدّل الظلام إلى نور ، وتعاقب النهار والليل ، وقد يستدلّ بتطوّر هذا الإنسان ووجوده حيث كان عدماً ثمّ تحوّل إلى وجود.

ويستدلّ بحاجة الممكنات إلى موجد وإلى علّة رازقة وقوّة خالقة فاعلة.

ويستدلّ باختلاف الأجسام صورةً ومادّةً وتركيباً وما نراه فيها من الاختلاف في الأشكال وحتّى في الرسوم ، واختلاف هذه المخلوقات دلالة على وجود مدبّر وفاعل وعلّة خضعت لها هذه المخلوقات هو الله تعالى.

* لقد وقف القرآن موقف البطل أمام خصومه وما علينا إلّا أن نصف القرآن بالصفات الآتية :

١ ـ الجرأة والقوّة واللامبالاة.

٢ ـ القدرة على صياغة الدليل المقبول المقنع ، الدليل الذي يتلاءم وعقليّة خصومه سالكاً سبيل التدرّج والارتقاء والإيصال إلى مرحلة عليا ، وإيقاع الخصم بالاعتراف بأنّه على باطل ، وإنّ ما يدعو إليه القرآن هو الحقّ.

٣ ـ نجاحه في دحر خصومه في الجدل ونجاح القرآن مسألة

لا يشكّ فيها أحد ، فقد اندحر خصوم القرآن في أكثر من موقف ، وبان فشلهم أمام منطق القرآن ، ولم يجدوا سلاحاً يقاومون به ما جاء به القرآن من سلاح.

وتحدّي القرآن لخصومه دليل على صدق دعواه ، وهو سلاح غزى به العقل العربي ، وسلاح يصلح لغزو العقل اليوم وغداً.

إنّه قرآن قوي بأدلّته ، وقدير على مسايرة العقليّة.

٤ ـ مرونة القرآن على صياغة الدليل وسبكه وإعطائه لأذن الخصم بوضوح ، فلا تعقيد ، ولا تخلّف ، ولا تراجع ، ولا ردّ فعل سلبي ، ولا إثارة عناد ، أو تعصّب بلا ثمرة.

هاك فاقرأ هذا الدليل القرآني :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾[١].

فإذا قلت لك : إنّ القرآن تحدّى العقليّة العربيّة ، وإذا قلت : إنّ القرآن هاجم العقليّة بأكثر من مرّة ، ووقف بلا مبالاة بألفاظ لاذعة شديدة وألفاظ أقوى من حسام بيد مقاتل ، وبأشدّ من سيف بيد بطل جرّب الحرب والنزال ، وإذا قلت لك : إنّ القرآن استدلّ وجادل وأقام أدلّة منطقية مقبولة ، وتغلّب على خصومه الجاحدين ذوي العصبيّة الموروثة والمغروسة.

---

(١) الملك : ١٤ و ١٥.

وكم للقرآن من خصوم في كلّ زمان ؟

وخصوم القرآن اليوم أكثر من الأمس ، ولغة الخصوم مختلفة زماناً ومكاناً.

وإذا قلت لك : إنّ القرآن جادل العقليّة العربيّة جدال من أيقن الغلبة ، وأدرك أنّه على حقّ ، واعتقد النصر واندحار الخصوم ، وعرف الطريق المؤدّية إلى تحقيق غايته بلا تكلّف وعناء ، وأنّه منتصر لا محالة.

وإذا قلت لك : إنّه تغلّب على كلّ الصعوبات ، وما سطّره خصومه ، ووضعه عدوّه ؛ لإيقاف مسيرة القرآن ، إذا قلت ذلك فإنّي صادق ، وأملك أكثر من دليل على صدق ما أقوله.

وإذا قلت ذلك فصدّق ما أقوله ، وإذا كنت على شكّ من قولي فلنرجع إلى القرآن لنرى كيف وقف القرآن ، وكيف وقف خصمه العنيد والخصوم المسلّحين بأسلحة شيطانية وطاقات ، وشنّوا حملة جبّارة ، ووضعوا في طريق دعوة القرآن العقبات ، وعندها تدرك أثر القرآن في تحرير العقليّة العربيّة وإقناعها أنّ الله هو الخالق وله العبادة.

فإذا قرأت ما أسوقه لك من الآيات القرآنيّة ستدرك كيف كان طريق الدعوة شائكاً ، وتدرك كيف اجتازه القرآن ؟

وكيف أدرك القرآن أن لا بدّ من تعبيد الطريق أمام الدعوة إلى الله ليجتاز هذا الطريق في التبليغ والتفهيم والإقناع والبرهنة ، والوصول إلى الإيمان بالله تعالى رغم هذا وذاك.

وتدرك أنّه غيّر العقليّة من الجمود إلى تقبّل الدعوة بتفكير بعد عناء وصبر ، وستدرك نجاح حملة القرآن على الأصنام ، وعلى المعتقدين بها آلهة من دون الله ، فهو يشتم وينقد شتم ما دونه شتم بألفاظ شديدة وسخرية من تلك العقليّة ، ويعلن قوله : إنّها عقائد باطلة لا واقع لها خلقها البشر وروّجها الزمان ، وهو في عرف الأديان وذوي العقائد ألم لا يطاق ولا يدركه إلّا ذوو العقائد أنفسهم المتمسّكون بالعقيدة أي عقيدة .

وإنّ القرآن وقف رغم الخصوم والمعارضين له ، وأصحاب المعارضة هم :

١ ـ أولياء الطاغوت ، ويكثرون القول : الأصنام أرباب أجدادنا القدماء ، وآلهة آبائنا .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾(١) .

ويعلن القرآن صوته عالياً أنّه على الحقّ وأنّهم على باطل :

﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾(٢) .

---

(١) لقمان : ٢١ .

(٢) الحجّ : ٦٢ ، لقمان : ٣٠ .

واشتدّت المعارضة للدعوة الإسلاميّة ، وتحامل أولياء الطاغوت ، وشنّوا حملة بعد ما ألقوا كلّ سلاح ظنّوا بذلك إيقاف مسيرة الدعوة ، وباءوا بالفشل ، وأرادوا بذلك الحيلولة بين الدعوة والأُمّة ، فلجأوا إلى أقاويل طمعاً بتأثيرها على أتباعهم من عوامّ الناس ، ومن البسطاء ، ومن الكفّار التابعين لطبقة المتنفّذين.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[١].

ومفاد قولتهم وندائهم كما حكى القرآن.

﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ ﴾ الذي يقرؤه محمّد ، ولا تصغوا إليه ، ﴿ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ أي عارضوه باللغو الباطل ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ باللغو الباطل ، ولا يتمكّن أصحابه من الاستماع[٢].

ولعلّك تسأل عن اللغو والأقاويل التي قام بها هؤلاء الغوغائيون لحرمان السامعين من الإصغاء إلى آيات القرآن.

إنّ هؤلاء لجأوا إلى المكاء والصفير وقراءة الأشعار والأراجيز ، وكلّها تشكّل ضوضائيّة ، وضجيجاً وثرثرة من كلام أجوف ، وأصوات منكرة ، وحركات جنونيّة.

وفي هذا الموقف المحرج يدعو القرآن إلى الإنصات والاستماع :

---

(١) فصّلت : ٢٦.

(٢) راجع مجمع البيان ٥ : ١٠ ، فيه زيادة فائدة.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(١).

وتلا قوله تعالى عليهم:

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾(٢).

وهنا نسأل: لماذا لجأوا إلى هذا وغيره ؟

أدرك أولياء الأصنام أثر القرآن في سامعيه ، وأدركوا نجاح الدعوة ، وتقدّم الداعي نحو النصر ، والانتصار في كلّ ذلك عطاء وكسب ، وإذا هي نتائج مقبولة ، واجتياز خطوات ، وكثرة عدد.

ويكرّر هؤلاء أقوالهم كما حكى القرآن أقوالهم:

﴿ وَيَقُولُونَ ءَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾(٣).

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٤).

ويهتف الداعي نداءه علناً:

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَاتَذَكَّرُونَ ﴾(٥).

---

(١) الأعراف: ٢٠٤.

(٢) النمل: ٩٢.

(٣) الصافّات: ٣٦.

(٤) الأعراف: ٦٠ ـ ٦٢.

(٥) الأعراف: ٣.

ويهتف أولياء الطاغوت وذوو النفوذ في ذلك المجتمع وشدّوا أزرهم وجمعوا أتباعهم حولهم ، ونادوا بهم :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[١].

وأعلنوا عنادهم ، وصرّحوا ببقائهم على كفرهم وعتوّهم رغم ثبات الداعي ، وبيان واقعه ، وإقامة أكثر من دليل :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾[٢].

هؤلاء هم أولياء الطاغوت عبدة الأصنام ، يعيشون الحيرة والتردّد.

١ ـ وهم يشكّلون معارضة فاشلة ، وتحزّباً على الباطل ، والقرآن يردّ أقوالهم ، ويقول بجرأةٍ وعلناً ، واسمع أقواله ونقده إلى المتعلّقين بها ، ويقارع المرتزقة ، ويقف ببطولة يقابل سدنة الأصنام والمدافعين عنها.

٢ ـ إنّ هؤلاء يشكّلون طبقة ذات نفوذ وسلطة ، ولكنّ القرآن يقذف بأدلّته لتهدم من جبروت هذه الطبقة ونفوذها.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾[٣].

﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٤].

---

(١) سبأ : ٧.

(٢) سبأ : ٣١.

(٣) فاطر : ٤٠.

(٤) سبأ : ٢٧.

ويستمرّ القرآن في الحديث عن هذه المواقف، وعن أقوال خصومه، ويتحدّث عن نفسيّة المعاندين وما انطوت عليه سرائرهم:

﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(١).

وفي القرآن حكاية لأقوال العرب!

وكم للعرب من قول بعده قول؟

وكم للقرآن من موقفٍ ودليلٍ بعده دليل؟

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(٢).

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِن رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾(٣).

---

(١) الجاثية: ٨.

(٢) الأعراف: ٧٠.

(٣) الأعراف: ٧١.

بداية حرب واستعداد للجدل

ويقف القرآن موقفاً للدعوة وإقامة أدلّته ، ويتحزّب أعداؤه الكثيرون ، وأعدّوا أتباعهم ، ولكن حزب الله القليلين حاملين القرآن على ألسنتهم يقفون بجانبٍ آخر وتبدأ الجولة.

والقرآن ينزل ليساند هذا الفريق ويعدو على خصمه بقوّة حجّة ، حجّه بالغة بعدها حجّة ويقف بين الفريقين:

فريق المؤمنين حملة القرآن الدعاة إلى الله ، وفريق المعاندين الذين يندفعون وراء المقاصد ، ويستجيبون بلا تأمّل:

﴿ فَرِيقاً هَدَىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُهْتَدُونَ ﴾(١).

فريق أحسّ بالنور وفتح عينيه على هداية القرآن ، وفريق يعيش

---

(١) الأعراف: ٣٠.

الظلام وأسرَع سعياً وراء أوليائه دعاة الباطل. الله وليّ هؤلاء، والشياطين أولياء الآخرين، وأعلن القرآن بصراحة:

﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[١].

ولم يكتف القرآن بهذا، بل صبّ عليهم وابلاً من أدلّته وحججه الساطعة الواضحة، وشنّ حملة بعدها حملة على الأصنام، وهو القصد الأوّل له، قصده هدم هذه الآلهة.

ويعلن: أصنامكم مخلوقة لا خالقة، أصنامكم حجارة، لا عقل ولا سمع ولا منطق، أصنامكم جماد لا تستحقّ العبادة والتقديس، أصنامكم لا تنفع ولا تضرّ ولا تكفّ الأذى عنها فكيف عنكم، وفاقد النفع لا ينفع غيره، إنّها عاجزة مفتقرة لغيرها.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾[٢].

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِهِ ﴾[٣].

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[٤].

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) الأحقاف: ٤.

(٣) الإسراء: ٥٦.

(٤) المائدة: ٧٦.

إذن ماذا حدث بعد قراءة هذه الآيات ؟ بدأت حياة جديدة ، ويلقّب الصادق الأمين بالكاذب الساحر ، وبالشاعر ، وعدوّ الآلهة ، وتشتدّ ثورة هؤلاء دفاعاً عن هذه الحجارة التي طاف بها الآباء والأجداد ، ويتكتّل الشعراء ويطوف بهم نساء الحيّ وصبية المدينة يردّدون أشعار الهجاء ، وإذا بالقرآن يهاجم هؤلاء الشعراء بصراحة ووضوح .



مرحلة الجدل من البداية حتّى النهاية

١ ـ أقام القرآن مسرحاً جمع فيه خصمه ، وقام بحرب كلامية شديدة حسمت بين الكفر والإيمان.

سلاحه فيها الدليل القوي ، وسلاح خصمه كلام أجوف ، وقول بعده أقوال ، وجدل بغير حجّة وبلا تفكير.

وسلك القرآن طريقاً هادئة ، ونجح في هذه المعركة ، وسلك خصمه طريقاً وفشل في النهاية وتراجع ، قذف ألفاظاً كثيرة خشنة مؤلمة وليس لديه إلّا الاتّهام والقول الكذب والتكذيب لا علم ولا برهان مقبول.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدىً وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾(١).

وهاجم القرآن خصمه بعد يقين بإفلاس الخصم علمياً ، وإنّ القوم

---

(١) الحجّ : ٨ ، لقمان : ٢٠.

مفلسون من الدليل ، خصم لا يملك دليلاً ، وليس لديه أي سلاح منطقي ، أُناس عزّل.

وجاء القرآن بسلاح من البرهنة وبالحجّة القوية ، يصول عليهم ويعود ثانية ، بنصر من الله ، ويلقي بالحجّة التي لا تقهر ، ولا يقف عندها ويستمرّ بإلقاء اُختها ، ويوضّح بطلان خصومه الذين اندفعوا إلى الجدل ، جدل بلا دليل رغم هذا ، والقرآن يرحّب بخصمه ، ويعدّ العدّة ، ويحبّذ الجدل ، ويدعو له ويشرّعه ، ويضع له اُسساً ومناهج بالتي هي أحسن.

ويعتبر القرآن أنّ الجدل قوامه هي الطريقة الحسنة : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[1].

ويعلن مرّة ثانية لأتباعه :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[2].

وكيف بالجدل مع من يعيش العصبية الموروثة والجمود الذهني وحبّ البقاء على ما نشأ عليه وما ورثه من آبائه الأقدمين ، ويرى أنّ كلّ ما هو جديد هو من أساطير القدماء ، وأنّها ليست بحقائق.

كيف بهذا العقل الذي يعيش التأخّر والذي لم يملك دليلاً منطقياً يلقيه ! وكيف الجدل معه ! وكيف إقناعه وإيصاله إلى الحقيقة ! ؟

---

(١) النحل : ١٢٥.

(٢) العنكبوت : ٤٦.

وإدراك بطلانه وجموده وتأخّره الذهني لم يجد القرآن إلّا أقوالاً ، وحكى لنا أقوال خصمه .

أقوالاً كثيرة وكثيرة ، وحكاية القرآن طويلة ومتعدّدة بتعدّد المواقف وتكرار الجواب .

فيحكي لنا القرآن أنّهم جادلوا ، وذكر ما أقاموه من دليل .

ويحكي أقوالاً وما هي إلّا مقالة المغلوب المندحر ، وما هو إلّا جدل المتعصّب الذي يحبّ البقاء على ما هو مألوف ولا يرتضي لنفسه التقدّم ولا يرضى لها الخير والرقيّ .

إنّه جدل الضعيف بلا حجّة .

إنّه جدل المغلوب الفقير أمام القويّ الغالب المسلّح بأقوى سلاح ،

إنّها مرحلة حاسمة يصوّرها القرآن ، إنسان غالب وآخر مغلوب ، يقفان هذا الموقف للمشاهدين ، ويسمع المشاهدون قول هذا وقول ذاك ، وتشتدّ المعركة بين هذا وذاك ، وأخيراً يتغلّب القرآن على خصمه بما قام به من تبيان واقعه وتقديم أدلّته القوية ، أدلّة لا تحصى .

وعندها يتراجع الخصم ، ويشاهد المشاهدون تخاذل هذا الخصم ، ولم يستطع الوقوف أمام سطوة القرآن وصولته وقوّة أدلّته ، ومن يستطع أن يقف أمام القويّ ولو استطاعوا لما مالوا إلى نوعٍ آخر من الحرب .

والقرآن يستمرّ فيتحدّى ولا يقف ، ويقطع أشواطاً ، ويدخل

ميادين جديدة، ويغزو تلك العقليّة بسلاح التحرير والتوعية، وإذا قلت لك: إنّ في القرآن جاذبية ساحرة، وتأثيراً في النفس والعقل، فاقرأ القرآن وتأمّل آيه فقد استطاع أن يكهرب نفسيّة السامعين، ويجذب الإنسان العربي إليه رغم عناده.

٢ ـ وهنا أحسّ الخصوم بأثر القرآن وجاذبيته، وتغلّبه وسطوته وهيمنته على نفس السامعين عابري الطريق، والسامعين من الأعراب، والوافدين إلى مكّة.

وفسّر الخصوم إنّ هذا سحر، وإنّ هذه الأقوال ساحرة سحر السامع بها، والداعي محمّد ﷺ ساحر، وأيّ سحر كان في ذلك المحيط! وهل لساحر أن يدّعي النبوّة ويدعو إلى الله!؟

والساحر إنّما يدعو لغرضه، ويدعو لما يريد تحقيقه، ويسعى لغرض وقصد ذاتي، والساحر لا يدعو إلى عبادة الله، ولا يتعب نفسه ويجهد ويبذل الوقت ويلاقي هذه المتاعب إلّا وراء مصلحة ذاتيّة وغرض في نفسه كما هو الغالب.

وهل كان الداعي لله ساحراً! وهل كان من يدّعي النبوّة ساحراً؟!

ولكنّها لغة الخصم المغلوب، ويحلو له أن يقول ويكثر من أقواله، وله أن يفسّر ويتعلّق بحجج واهية، ويتمشدق بآراء لا واقع لها، ويلقي بحجّة ضعيفة لا تحقّق شيئاً.

حجّة داحضة :

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾(١) .

بغير سلطان ولا يملكون دليلاً منطقيّاً مقبولاً .

إنّها معارضة بلا حجّة ، وكلام بلا دليل .

إنّها اتّهامات أشاعها الخصوم في المحيط .

إنّها معركة جدليّة حاسمة خرج القرآن منها منتصراً .

٣ ـ لقد خاض القرآن معركة جدليّة حاسمة واستطاع أن يحقّق غايته بأقصر مدّة زمنيّة ، وغاية القرآن واضحة .

وهي من أشدّ المعارك ، معركة جدل وفكر وكلام قبل أن يجرّد السيف ويقاتل من لا يعرف دليله ودعوته .

ولقد قدّم القرآن في هذه المعركة البطولة والصمود والقوّة ، وانتصر على خصمه ، ووصل إلى ما أراد الوصول إليه ، وقد وصل وأوصل سامعيه إلى مرحلة الإيمان ، وحقّق انتصارات فكريّة بجدلٍ ناجحٍ قوي ، واستطاع أن يقدّم الغسيل الفكري لتلك الذهنيّة التي عاشت التقليد والتعصّب للقديم ، والتي لا تملك حجّة منطقيّة ، واستطاع القرآن إعدادها أوّلاً ومن ثمّ جادلها ، وتقبّلت أدلّته وفي كلّ ذلك حقّق نجاحاً ، ولاقى كلّ ألم ، وتذوّق طعم الشدائد ، وهو في كلّ موقف

---

(١) الشورى : ١٦ .

بطل قويّ لم يتراجع عن عزم ، ولم يكفّ عن سعي في إبطال ما تمسّك به خصمه من معتقد وتعلّق به .

والقرآن يقدّم له البرهان والبرهان بجرأة ، ويعلنها بصراحة وبأدلّة مؤثّرة ويلقي أدلّته جهراً .

ويستمع لأقوال خصومه الذين لا استعداد لديهم ولا قدرة لهم على إقامة دليل لإيقاف الداعي غير العصبية والتعلّق بأصنام ، وغير قولهم إنّها أصنام آبائنا وأجدادنا لا نتخلّى عنها ونحن أبناؤهم فما على الأبناء إلّا السير على ما كان عليه الآباء .

وغير اتّهام بعده اتّهام ، وغير ألفاظ خشنة ظنّاً بأنّها تقع على قلب هذا الداعي الذي ألمّ المحيط بدعوته .

وأخيراً كانت الغلبة للقرآن في مواقفه .

واشتدّ العداء ، وكثر خصوم القرآن ، ويجتمع هؤلاء لغيرهم وانضمّ لهم جمع آخر من اليهود والنصارى ، ولكلٍّ قولته وهتافه ، وانضمّ إليهم المنافقون والضوضائيون ، فاليهود قالوا وأعادوا من قولهم : (كتابنا ونبيّنا قبل نبيّكم ، ونحن خير منكم وأوْلى بالحقّ)(١) .

قالوا ذلك طمعاً أن يدفعوا محمّداً ويتغلّبوا عليه ، ويوقفوا الدعوة بعدما أحسّ هؤلاء بالخطر بتقدّم الدعوة ، وأدرك سدنة الأصنام بأنّ الداعي ينذرهم ويهدّد بتكسيرها وإزالتها ، ويدعو إلى إله واحد .

---

(١) مجمع البيان ٥ : ٣٦ .

شاهد هؤلاء تقدّم الداعي في الدعوة ، وفي ذلك كلّه نصر ومكاسب محسوسة .

وشاهد هؤلاء كثرة العدد حوله ، وانتشار الدعوة والأحاديث عنها في أكثر من مكان ، وتحوّل الحديث من السرّ إلى الجهر في القرى وعند الوافدين إلى مكّة .

ظنّ هؤلاء بأنّ الاتّهام والتحزّب وكثرة الأقوال سيوقف من عزم الرسول الداعي ، وأنّ ذلك يؤثّر على ذهنيّة الداخلين إلى الدعوة ، والمعتنقين للعقيدة ، والذين يردّدون آيات القرآن على ألسنتهم ويسمعون خصوم القرآن ، ولكنّ الخصوم لم يجدوا إلّا أقاويل باطلة لا تصلح أن توهن من عزم الداعي ، وإنّما كان ردّ الفعل أشدّ ، وازداد الداعي تمسّكاً بما يدعو له ، وازداد إرادة وانطلاقاً بقوّة تهدّد هؤلاء ، وصمّم الداعي على تحقيق غايته .

ويصرّح الرسول بأنّه لا يريد لهم إلّا الإيمان بالله ربّاً ، وهو يتحدّى العقليّة العربيّة ويدعو إلى الجدل إن كان عندهم دليل .

ويصرّح بأنّه جاء يذكّر ، والذكرى تنفع المؤمنين ، ويعود ويقرأ: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾[١] .

ويقف أمام خصمه ، إنّه موقف من أيقن النصر والانتصار ، وإنّه

---

(١) الرعد: ١٩ ، الزُّمر: ٩.

غالب ، وأنّ الدين هو ما يدعو له لا غيره ، وقد بشّره القرآن بذلك في أكثر من مرّة.

ويعود الداعي إلى الدعوة إلى الجدل إن كان عندهم دليل ، ويلقي بأدلّته الدالّة على بطلان ما عندهم ، وأنّ ما يدعو إليه هو الحقّ.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾(١).

ويعيد قوله مرّة أُخرى بلسان عذب وألفاظ باردة فيها رحمة بالسامعين:

﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾(٢).

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(٣).

ويكرّر من قوله ونقده بشدّة ، ويلقي بالمنبّهات الحارّة وبألفاظ تحمل معاني مؤلمة لعلّ الخصم يتراجع.

وبعبارة أُخرى: نطق القرآن بما فيه من معانٍ أثارت سخط الخصوم ، فشبّه هذه العبادة والعقيدة بالأصنام ببيت العنكبوت الواهي الذي لا أساس يدعمه.

---

(١) الأنبياء: ٢٤.

(٢) الأحقاف: ٣١.

(٣) الأحقاف: ٣٢.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(١).

ومرّة ثالثة يتحدّى خصمه ويسمه بأنّه على باطل ، وأنّ الدعوة الجديدة هي الحقّ ؛ لأنّها تدعو إلى الله وهو الحقّ.

وأنّ الحقّ منتصر وهو الغالب ، وأنّ ما يدعون إليه باطل ، والباطل مغلوب : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾(٢) :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾(٣).

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾(٤).

وتشتدّ الألفاظ ، وتكثر الأقوال ، وتبدأ الحرب ، ويستعدّ هؤلاء لحملة أُخرى.

ويقف الداعي موقفاً بعد موقف يلقي بالحجّة الدامغة بعد الأُخرى لإقناع سامعيه ، يبشّر وينذر ويقيم لهم دليلاً محسوساً يرونه بلا تكلّف ، ويقرأ جهراً قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ

---

(١) العنكبوت : ٤١.

(٢) الإسراء : ٨١.

(٣) سبأ : ٤٨.

(٤) الحجّ : ٦٢ ، لقمان : ٣٠.

صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ * أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ * أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾(١).

* ويقف الداعي موقفاً آخر أشدّ وأكثر ثباتاً، وأكثر اندفاعاً، وأشدّ صلابة وعزماً.

* ويقف الخصوم بعناد وصلابة ويلقون بأقوالهم وقد تحدّث القرآن عن أقوال العرب المعارضين له:

﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾(٢).



(١) الملك: ١٨ ـ ٢٤.

(٢) الزخرف: ٥٨.

القرآن وخصومه

يسمع الداعي خصمه العنيد وما يقذفه من اتّهامات، ويقف بلا مبالاة ولا تأثّر بما يتقوّلون.

يقف أمام عدوّه وهو يدعو...

وأكثر من هذا يحكي اتّهامات عدوّه للأجيال القادمة لتقرأ، وماذا حكى القرآن؟

إنّ الخصم يتّهمه بالكذب والافتراء.

وهي حكاية القدماء تسرّبت إلى العقليّة العربيّة، قالوا: إنّها حكايات الأُمم وأقوال السابقين لما وصلت إلى ذهنيّة الإنسان العربي، كذب الداعي وكذب الأنبياء.

واتّخذ الخصم هذه المقولة ويلقيها على الداعي فيتّهمه بالكذب كما كذّب من كان قبلهم من الأُمم، كذّبوا دعوة الأنبياء، واعتبروا الداعي يعيش في ضلال؛ لأنّه يدعو إلى ربّ واحد، ويدعو إلى ترك

آلـهة الآباء وتكسيرها ، ما هو ردّ الفعل من الداعي وهو يتلقّى مثل هذه المنبّهات من قومه ؟

﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلٰكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾(١).

ويعود القرآن فيردّ اتّهامهم ، ويعاضد الداعي ويصفه بالصدق ، ويصفهم بالكذب ، وإنّ منطقهم منطق الكذّاب المفتري ، إنّه منطق من لا يملك حجّة.

* وحمل الداعي القرآن على شفتيه ، وراح يتقدّم إلى خصمه يدعو ويقرأ ، ونزل إلى الميدان وكلّه خطر ، وكلّه تهديد ، ويقف الداعي قبال خصمه العنيد القوي وهو يسمع اتّهامات هذا الخصم بلا تأثّر وانفعال ، ولا ألم ؛ لأنّه يدعو إلى الله ؛ ولأنّه الداعي إلى الحقّ.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾(٢).

لم يتراجع الداعي ، وهو ثابت في دعوته إلى الله تعالى ، وهو يسمع اتّهام خصمه.

ثمّ يسمع اتّهاماً آخر من فريقٍ ثانٍ.

---

(١) الأعراف : ٦٠ ـ ٦٢.

(٢) الفرقان : ٤.

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾[١].

هذا هو سلاح الخصم ، وهذا نداء العدوّ ، إنّه ليس قرآن ، وما هو إلّا كذب افتراه محمّد واختلقه من تلقاء نفسه ، وأعانه عليه آخرون.

يقصدون جماعة من المثقّفين (وهم عداس مولى حويطب بن عبدالعزّى ، ويسار غلام العلاء الحضرمي ، وحبر مولى عامر ، وجماعة من اليهود والنصارى)[٢].

هذا اتّهام يقذفه الخصوم.

ولكنّ القرآن يردّه بإيجاز بآخر الآية المذكورة.

﴿ ظُلْماً وَزُوراً ﴾[٣].

إنّه يراجع ما أملي عليه أنّه انتخبها ، فهي تملى عليه طرفي النهار حتى ؟

والعجب لهؤلاء الخصوم أن يتّهموا الداعي مع علمهم أنّه كان لا يحسن القراءة والكتابة ولم يتّصل بغيره من ذوي الثقافة العالية ليتزوّد من معارفهم !

ويستمرّ الخصم العنيد يصول بسلاحه ، سلاح الاتّهام والكذب ،

---

(١) الفرقان : ٥ و ٦.

(٢) مجمع البيان : ج٢٩ ، تفسير سورة الفرقان.

(٣) الفرقان : ٤.

سلاح المغلوب الذي ضلّ طريقه ولا يبصر طريق الفرار بعد الهزيمة والاندحار ، ويتراجع الخصم ثمّ يعود بعد ذلك ، ويدعو قومه وحزبه الضوضائيّين من العامّة والبسطاء الذين يستجيبون لذوي المطامع من غير تفسير ، ويقف مرّة ثانية ويطلب من الرسول أن ينزل عليه كتاب يشهد له ، أو يأتي بشاهدين ، والرسول في ذلك كلّه ثابت يجهر في إعلان الدعوة.

والخصم يهدّده ويعده بأنّ الأصنام سوف تنزل عليك عقاباً في الدنيا وتفتك بك ؛ لأنّك أسأت لها ، إنّها تنتقم منك عاجلاً. بهذا فكّر الخصم بأنّ الآلهة تنتقم منه عاجلاً ؛ لأنّه خرج عليها ويريد عبادة إله غيرها ويدعو الناس إليه.

* وما دام الرسول بشراً ، والبشر يتألّم ، وحقّاً له أن يتألّم لا بدافع ذاتي ، تألّم الرسول بدافع الرحمة على قومه ، وبدافع الشفقة على هذه الأُمّة ؛ لأنّها لم تدرك ولم تصل إلى مرحلة من الوعي لتدرك هذه الدعوة وغاياتها ورحمة بالإنسان العربي الذي يعيش تحت سيطرة هؤلاء ، ويتأثّر بأقوال الملأ من قريش وذوي المطامع.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾[١]. ويفاجؤهم

---

(١) هود: ١٢.

القرآن بردّ الاتّهام وإسكات خصمه العنيد، ويسلّي الداعي ويزيده قوّة وثباتاً.

ويفاجؤه مرّة ثانية:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلمِ اللهِ وَأَن لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُسْلِمُونَ ﴾(١).

ويقف الخصوم موقفاً ثالثاً، ويلقون اتّهاماً جديداً، ويتظاهرون بالكذب له والعناد والعصبيّة، والتعلّق بالماضي الموروث؛ لأنّه عن القديم السالف عن الأب والجدّ، ولكنّ الداعي في هذا الموقف وفي هذه المرّة لا يجد تسلية له إلّا أن يتوجّه إلى ربّه بالدعاء بالنصر والانتصار؛ لأنّهم تألّبوا عليه، واشتدّت حركة خصومه حرباً، وتظاهراً عليه، ويرفعون أصواتهم، كما يتحدّث القرآن عن هذا الموقف المحرج وصوره بصورة تحكي لنا الخصم وما يحمل وما ينطق به.

١ ـ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾(٢).

٢ ـ ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾(٣).

---

(١) هود: ١٣ و ١٤.

(٢) المؤمنون: ٣٨ ـ ٣٩.

(٣) الحجر: ٦.

٣ ـ ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾(١).

واتّهموه بأنّه ليس بمرسل من الله :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾(٢).

ولم يترك الخصم شيئاً لإيقاف الدعوة إلّا وقذفه وألقاه ، ولم يتحقّق شيء يأملونه ، فلجأوا إلى الاستخفاف والاستهزاء والسخرية بالداعي ، والتزهيد واحتقار المؤمنين ، وتعذيب الداخلين إلى الإسلام ، وأكثروا من الاتّهام المختلق ودعوى الباطل والتكذيب ،كان هذا وغيره من الأسلحة التي قاوم بها الخصم الدعوة ووقف أمام تيّار هذه الدعوة. وتكثر الضوضائيّة والمعارضة لها وتشتدّ المظاهرات الكلاميّة ظنّاً بأنّ ذلك عامل لإيقاف مسيرة الدعوة ، وإذا أُنزلت آية من القرآن ازداد الاتّهام له.

﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾(٣).

---

(١) الأعراف : ٦٦ ـ ٦٨.

(٢) الرعد : ٤٣.

(٣) الروم : ٥٨.

بهذا الاتّهام وغيره ، ويكثرون من الأقوال ، ويقدّمون الطلبات ، ويشترطون شروطاً ، ويريدون منه أُموراً فوق العقل ، وأصرّوا على عنادهم ، ويكثرون من الضوضائيّة والقول: إنّ الدنيا هي الحياة ولا حياة بعدها وإلّا هل تستطيع إحياء آبائنا ؟

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١).

وبهذا الطلب أصرّ المعاندون بعنادهم ، وأصرّوا وتأثّروا واستجابوا لذوي الجاه منهم والنفوذ ، وحقّقوا لهم أوامرهم وهي:

١ ـ معارضتهم للقرآن حين يدعوهم للإيمان بكلّ حركة ، وبكلّ صوت ، وبكلّ ما يؤلم الداعي وإسماعه ما يسكته ويؤلمه.

٢ ـ وهنا يكشف القرآن عن هذه الأقوال وتحزّب الخصوم واختلافهم في القول والاتّهام له.

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾(٢).

وهنا ندرك وجود مستويات مختلفة ، ونماذج بشريّة متنوّعة ، لعبت دورها في حركاتها وأقوالها لإيقاف مسيرة دعوة القرآن ، فقامت بنشاط ومعارضة ، وقام آخر بدور ظنّ أنّه يؤثّر على السامعين.

فقسم من الخصوم أدرك من القرآن أنّه ذو قوّة ساحرة مؤثّرة على السامع ، فذهب إلى أنّ القرآن سحر ، والداعي ساحر ، وفيه جاذبيّة.

---

(١) الدخان: ٣٥ و ٣٦.

(٢) الأنبياء: ٥.

وقسم آخر يذهب مذهباً آخر ، وحكم عليه أنّه أضغاث أحلام ، ويقصد أنّه حكاية النائم بعد يقظته ، والراقد بعد وعيه. يبدأ يقصّ على السامعين ما علق في ذهنه من بقايا حلمه ، فقد ينسى قسماً ويحفظ قسماً آخر ، وقد يزيد وينقص ؛ لأنّه نائم وانتبه وبدأ يقرأ ، وما يقرؤه محمّد إنّما هو أضغاث أحلام[١].

وقسم آخر قالوا: هو شاعر ، وما يقوله إنّما هو شعر ، وعندهم أنّ الشاعر لا يكون نبيّاً مهما ترفّع بأفكاره ، وجاد بأقواله ونظمه ونسجه ، وعندهم أنّ هذا الداعي إنّما هو شاعر ، ولم يأت بشيء جديد ، وما أكثر الشعراء في المحيط العربي وما يقوله إنّما هو شعر وليس بوحي ، وما يقرؤه هو قائله ولم يكن من وحي السماء.

والدافع لهؤلاء على هذا القول أنّهم رأوا ما يقرؤه محمّد إنّما هو بلغة عربية ، وبأساليب متداولة ومألوفة ، والصياغة والسبك ، والجملة ونهايتها ورويها وقافيتها وحدودها ، والسجع في كلّ جملة وإيقاعها فهو نثر وليس بنثر أو يشبه الشعر بقوّته[٢] وتفعيلاته ، والوقفة في آخر القول ، فليس هو بشعر.

---

(١) هذه قولة الخصوم ، حكاها القرآن ، وهي سلاح الخصوم القدماء ، ولم ينجحوا فكيف بأعداء القرآن اليوم.

(٢) لا يمكن الحكم على الآي القرآني أنّه نثر أو هو شعر (إنّ القرآن ليس شعراً ولا نثراً ، وإنّما هو نثر إيقاعي سماوي من أسمى ما يكون ، ولولا هذا الايقاع الخاصّ به الذي لا يجاريه أي إيقاع شعري أو نثري أبداً لما أمكن تجويده ، والتجويد ضرب من الغناء الديني) ، صفاء خلوصي ، فنّ التقطيع الشعري: ٣٩.

إنّه اتّهام ويترقّى هؤلاء في الاتّهام.

إنّه حيرة وتردّد واندحار، وعدم وجود سلاح لديهم يؤثّر على اتّباع الداعي ويستجيب لهم السامعون.

وكثرت الاتّهامات له ظنّاً بأنّهم يربحون المعركة، ويوقفوا مسيرة الدعوة، ويؤخّروا قافلة القرآن التي قطعت مسافات وربحت المكاسب.

وشكّ فريق آخر في كونه من السماء، وإنّما هو من تأليف محمّد، وآخرون صدّقوا في بعض وشكّكوا في آخر.

واتّفق الخصوم أن يتوجّهوا إلى الداعي بعطاء جديد، وأن يأتوه عن عامل آخر لعلّه يجد عنده أثراً ونصيباً، واتّفقوا على إعطاء الداعي الملك والزعامة عليهم، ويعدونه بأموالٍ جزيلة، والدخول في دينه إن هو دخل في دينهم، والغرض من ذلك هو كشف حقيقة هذا الداعي، وبيان ما يصبو له ويحاول تحقيقه.

إنّ هذا وغيره سجّله القرآن، وسجّل ردّه ودفاعه للأجيال لتعلم ويطّلع الإنسان على حقيقة الخصم، وكيف دافع القرآن وتراجع الخصم رغم ما قدّمه من طلبات وشروط، وكان في كلّ ذلك أقوى وأقوى.

ويعلن القرآن أنّه على الحقّ، وأنّ العدوّ على الباطل.

والقوّة والنصر للحقّ.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾(١).

ويعلن القرآن تهديد عدوّه:

﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾(٣).

ويقف القرآن موقفاً جديداً، ويسمع أقوالاً جديدة من خصمه، وينقل نماذج من أقوال خصمه تفصيلاً، وإنكارهم له، وطلباتهم منه، وردّه واندحار الخصم وتراجعه:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٤).

ما هذا الذي يطلبه العرب؟ إنّها طلبات غير معقولة.

ويستدلّ الخصم بأنّ الله أراد لنا البقاء على عبادة آبائنا القدماء، ولو أراد لنا عبادته لهدانا إلى ذلك ووفّقنا.

---

(١) الأنبياء: ١٨.

(٢) الحجر: ٩٦.

(٣) الحجر: ٣.

(٤) الجاثية: ٢٥ ـ ٢٦.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾(١).

لم يقف القرآن عند هذا الحدّ وهو يسمع تصريحات عدوّه ، بل يوجّه حملة ضدّ هؤلاء الذين يشيعون ويلقون أتباعهم باسم البقاء على عبادة ومعبودات آبائهم ، وأنّ هذا الداعي من ذوي الأغراض والمطامع ، ويعود القرآن يهدّد ويقيم أدلّة على بطلان هذه العبادة ، وهذه المعبودات الميّتة الجامدة العاجزة المخلوقة ، وأنّ الذي يستحقّ العبادة هو الخالق.

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾(٢).

إنّ هذا وغيره صرّح به القرآن ، ولكنّ المتنفّذين المترفين هيّأوا وأعدّوا أتباعهم وأمدادهم صفاً واحداً ، ووقفوا بما لديهم من قوّة وعدّة وطاقات لإيقاف مسيرة القرآن ، وإخماد صوت الحقّ ، وأنذروا وهدّدوا وعذّبوا وآذوا الداعي طمعاً بتراجعه ، وهنا يوحي القرآن إليهم إلى هؤلاء الذين أشاعوا الاتّهامات وهم رأس الفتنة وهم رأس الشرّ وسبب هذه الحركة.

---

(١) النحل : ٣٥.

(٢) النحل : ٢٠ ـ ٢٢.

﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[١].

ويعتبر القرآن أقاويل المترفين وذوي النفوذ والسلطان في المجتمع القبلي العربي ما هو إلّا جرأة منهم على الدعوة، وعلى الداعي الصادق الأمين الرحيم على أمّته وقومه.

ويعلن القرآن إنذاره بقوّه:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾[٢].

ويرفع الداعي صوته عالياً يقرأ القرآن والخصوم حوله يقومون بحركات مختلفة:

١ ـ فريق يسمع ويتأثّر لا شعورياً.

٢ ـ وفريق آخر يبتعد عنه، وبعد الفراغ يتناقلون الآيات ويكثر السؤال عمّا قاله الداعي في هذا اليوم، وتشيع الآيات في مكّة وقراها والقبائل تتحدّث بالآي القرآني.

وحكى القرآن وضعيّة هؤلاء الخصوم تسلية للرسول الداعي:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ

---

(١) المؤمنون: ٥٤ ـ ٥٦.

(٢) المؤمنون: ٦٤ و ٦٥.

آنِفاً أُولـٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾[١].

ويكثر القرآن من تسليته للنبيّ والحديث معه في ساعات محرجة شديدة ليزداد عزماً وانطلاقاً ، ففي سورة الدهر والغاشية ويس وغيرها نجد القرآن يوجّه قوله للنبيّ وحده في وقت تألّب عليه الخصوم ، وتحزّبت فيه العرب .

والقرآن ينزل عليه تنزيلاً ليرسم له خططاً ، ويضع له منهاجاً ليسير عليه ، ولم يترك القرآن مناسبة ولا موقفاً إلّا وفاجأ الداعي بمرسوم جديد ونبأ من السماء ؛ ليرفع ما في نفسه ، أو يرسم له سبيلاً يتخلّص عمّا خطّط الخصم له للإيقاع به والتوهين من عزيمته .

والداعي إنسان يتألّم ويحزن شفقة على قومه الذين تحزّبوا على حربه ، والقرآن يعلنها في أكثر من آية ، ويصوّر لنا نفسيّة الرسول الداعي :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾[٢].

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[٣].

ويعلن مرّة ثانية :

---

(١) محمّد ﷺ : ١٦.

(٢) الحجر : ٩٧.

(٣) النحل : ١٢٧.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾(١).

وفي سورة الغاشية:

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾(٢).

ويُسمعونه مرّة أُخرى اتّهاماً آخر أشدّ له وقع في النفس البشريّة التي تتحرّك وتستجيب وتردّ على هذا المنبّه الخارجي، يرون في الداعي مرضاً نفسياً، ويكثرون الضجيج حوله والأصوات الباطلة.

وما عنده من ردّ فعل إلّا أن يبثّ شكواه إلى ربّه لينصره على هؤلاء الخصوم الذين أشاعوا لأتباعهم أنّه مصاب بأمراض نفسيّة وعقليّة، ولا يقترب إليه أحد، وكثرت إشاعة هذه التهمة في الأوساط العربيّة، والداعي يطرق سمعه ويسمعه الخصوم: إنّك مريض ومصاب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾(٣).

ويعدون أتباعهم بأنّه سيلاقي مصيره عن قريب.

---

(١) الدهر: ٢٣ ـ ٢٧.

(٢) الغاشية: ٢١ ـ ٢٦.

(٣) الحجر: ٦.

ويأنس الخصوم ويطربون فرحاً بهذا الوعد: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾[(١)].

إنّها قولة قديمة وصلت وتسرّبت إلى عقليّة الإنسان العربي، وتناقلها القدماء من قبل، وورثوها عن طريق الأقاصيص والحكايات المروية لهم كما قالوا بذلك.

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ ﴾[(٢)].

وألقوا هذا السلاح وغيره وقالوا:

إنّها أُسطورة القدماء لا واقع لقولتك، وليس لها حقيقة موجودة به، ولكنّ القرآن يسلّيه ويعاضده بقوله: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾[(٣)].

إنّ الداعي شأنه شأن إخوانه القدماء، وما يلاقيه هو من خصومه، وما يسمعه فقد سمعه شيخ المرسلين نوح من قبل.

وما قالته العرب ليس فيه زيادة إلّا قولهم الشعر، وإنّه إنسان شاعر وسوق الشعر عندنا قائمة رائجة، ونحن أساطين الشعر، وأُمراء القول، ولم يأت الداعي بشيء يستحقّ به النبوّة، ولن نتّبعه، وما يصدر عنه من قول إنّما هو شعر شاعر ليس بقرآن منزل من السماء، أو وحي يوحى إليه.

---

(١) المؤمنون: ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) المؤمنون: ٨٣.

(٣) الحجر: ٩٥.

وبدأوا يحيكون له ويكيدون ويتربّصون به هذا ، والداعي يقرأ عليهم كتاباً عربياً بلغة القوم ، والقوم يفرّون عنه بعناد.

ويصرّح القرآن عن سبب هذا التباعد والفرار والإعراض :

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ (١) .

هذا وغيره يقف في طريق الداعي الصابر ذي الإرادة والنفس العالية ، يقف الداعي قائلاً :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (٢) .

ويقف وقفة البطل الذي أيقن من نفسه القدرة والقوّة والنصر على عدوّه ، العدوّ الأعزل الذي لا يملك سلاحاً .

ويوجّه صوته لفريق تمرّد عليه وأكثروا حوله الضجيج ، فقرأ عليهم بصوت مرتفع يرنّ صداه في أُذن عدوّه الذي أدبر وأعرض عنه :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا * إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ ﴾ (٣) .

---

(١) فصّلت : ٣ ـ ٥.

(٢) فصّلت : ٦.

(٣) محمّد ﷺ : ٢٤ و ٢٥.

ويوجّه الرسول الداعي صوته عالياً:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾(١).

ويحمل القرآن عليهم بصوته عالياً وبصراحة ينزّه الرسول عن الشعر: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾(٢)، قالوا إنّه شاعر؛ لأنّهم فسّروا هذه الآيات ونهايتها واتّفاقها بروي واحد إنّها شعر للبقاء على الكفر، ويعيد القرآن حملة شديدة:

﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٣).

ولعلّك أدركت قوّة حملات القرآن، وكيف تحدّى العقليّة العربيّة وحمل على الأصنام.

وأدركت ضحالة هذه العقليّة وإفلاسها حيث لم تملك سلاحاً للمقاومة.

والقرآن يكرّر حملاته بسطوة وبلا مبالاة يهدّد وهو يعدو ليرهب خصمه ويهدّده رغم إصرار الخصم وتعنّته وعصبيّته.

---

(١) الطور: ٣٠ ـ ٣٢.

(٢) يس: ٦٩.

(٣) الأنبياء: ٦٦ ـ ٦٧.

والقرآن يصوّت: ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾(١).

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾(٢).

قال القرآن هذا وغيره بصراحة.

بعدما أقام أدلّته واضحة.

قال ذلك بعدما أوصلهم إلى الاعتراف بالله، وأوصلهم إلى التنازل والتسليم لسلطان العقل الذي أجبرهم على الاعتراف بوجود خالق، واتّخذ أُسلوب الاستفهام والجواب كما نجد ذلك في سورة المؤمنون من خلق الأرض، سيقولون الله من بيده ملكوت كلّ شيء ؟

وبأُسلوب آخر وهو التقريع والتنبيه والإقرار كما نجد ذلك في سورة الغاشية: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾(٣).

قال هذا بعدما رأوا وشاهدوا هذا الحيوان، وإنّما اتّخذ من خلقته دليلاً؛ لأنّه هو الحيوان المألوف، وفي هذا الدليل صلة بالواقع العربي.

وكم قدّم القرآن من أدلّة لها صلة بالمحيط العربي بوضوحها ودلالتها.

١ ـ ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾(٤).

---

(١) الشورى: ١٥.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) الغاشية: ١٤.

(٤) المؤمنون: ٢١.

٢ ـ ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾(١).

٣ ـ ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾(٢).

وبعض الأدلّة القرآنيّة فيها جانب عربي ، فإنّ القرآن يستدلّ بما هو مألوف وموجود عند العرب ، فالإبل هي واسطة النقل ، والصحراء الواسعة والأرض هي مزرعة الإنسان العربي ، وهي مرتع لإبله ومرعى لحيواناته ، والسماء تنزل عليه ، من هذا الواقع يصوغ القرآن دليله: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾(٣).

---

(١) النحل: ٨٠ و ٨١.

(٢) الزخرف: ١١.

(٣) الغاشية: ١٤.

أدلّة القرآن لإثبات الله

وقف القرآن يهدم ويقدّم أدلّته على بناء عقيدة وإيمان بالله خالقاً وربّاً.

وقف ينقد سامعيه ؛ لأنّهم اعتقدوا بالأصنام وعاشوا الخطأ ، وتمسّكوا بالباطل هم وآباؤهم من قبل ، والأدلّة القرآنيّة لها طابعها الخاصّ ، وتمتاز أدلّة القرآن :

١ ـ بلغة واضحة عربية مألوفة :

ولغة الأدلّة يفهمها العامّي والعالم ، ولعلّ سبب وضوحها هو لتحقيق غرضه المقصود : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ ﴾[١].

ويبسّط القرآن أدلّته الواضحة التي لم يتوقّف عن فهمها أي سامع ،

---

(١) القمر : ١٧.

فهي عربية الأُسلوب واللغة: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾[١].

ماذا ترى يتحقّق للداعي ؟ وما هو ردّ الفعل من سامعيه العرب لو كان القرآن بلغة غير لغة العرب ، أو كان بأساليب غير مألوفة أو مستعملة في كلامهم ؟

والقرآن يتولّى الإجابة عن ذلك.

﴿ لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ وهلّا بيّنت وصيغت بلسان العرب حتّى نفهمه ؟

أيكون الداعي من محيط عربي ومن أُسرة عربية ؟ !

أو يكون الداعي عربي الولادة والنشأة ، والكتاب أعجمي ؟ ﴿ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ ؟

جاء باللغة العربيّة ، وعروبة القرآن وعروبة دليله عامل مساعد في جذب سامعيه وتقبّله وتأثيره[٢].

٢ ـ وبقوّة وأثر وتأثير في ذهنيّة السامع وملائمة للأساليب البيانيّة

---

(١) فصّلت: ٤٤.

(٢) وقد اقتضت الحكمة أن تكون الكتب السماويّة بلغة المحيط المنزلة فيه وبلغة الأُمّة التي تقرؤه ، وكلّ نبيّ جاء بلسان قومه ، جاء هذا القرآن بلغة هذه الأُمّة ، والرسول من هذا المحيط ، وعروبة القرآن لا ريب فيها. راجع مجمع البيان ١: ٢٢.

المتّبعة عند العرب ؛ لأنّ القرآن عنده غاية يحاول الوصول إليها ، فعليه أن يكلّم القوم لتفهم وتدرك وتتقبّل قوله ، فصاغ أدلّته على ما هو مألوف في المحيط ، ومتداول في اللسان العربي من الأساليب البيانيّة ، فهي عربية الأُسلوب والبيان ليكون أكثر أثراً على ذهن سامعيه ، وكم صرّح القرآن عن سبب ذلك :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(١).

٣ ـ في الأدلّة القرآنيّة جانبان : جانب الهدم ، وجانب التأسيس والإنشاء ، والتنبيه على الخطأ القديم ، والتوجيه إلى الصواب.

٤ ـ وفي الأدلّة القرآنيّة أُسلوب الاستفهام والمحاورة بينه وبين سامع معيّن ، أو منكر خاصّ ، أو كافر مقصود له.

٥ ـ وفي الأدلّة القرآنيّة جانب النقد والصراحة مع الخصم ، والمكاشفة الواضحة بلا مبالاة.

٦ ـ وفي الأدلّة القرآنيّة ظاهرة وطابع وهو يعقبه أو يتقدّمه بتبشير وإنذار.

٧ ـ أدلّة ذات عطاء وإيصال إلى حقيقة مغلقة محجوبة عن تلك العقليّة العربيّة قبل سماع الأدلّة القرآنيّة.

٨ ـ فيها إحراج للسامع ، وغلق كلّ طريق أمام الخصم ، وإيصاله إلى اللّابدّيّة والاعتراف بالصواب ، وهو الإيمان بالله تعالى.

---

(١) يوسف : ٢.

خلاصة الأدلّة القرآنيّة

وخلاصة الأدلّة القرآنيّة التي قدّمها ووضّحها لخصومه ، ونجح فيها بخلق إنسان مؤمن بعدما كان كافراً من قبل متعصّباً .

١ ـ استدلّ القرآن بخلقة الإنسان ووجوده وإيجاده وتركيبه وتطوّره بمراحله ، واستقامته وتصويره بهذا الشكل العجيب الغريب ، وأودع فيه هذه الأجهزة .

٢ ـ استدلّ القرآن بالسموات ، وخلقتها ، ورفعها بلا عمد ، وتركيبها على طبقات ، وما فيها من كواكب سيّارة متحرّكة ذات أبعاد ، وبداية ونهاية ، وأنوار ، وغيبتها واستنارة ورؤية لها ، وجعل لكلّ حركة ، من وإلى بمسافات ، فلا اصطدم ولا هبوط ولا ارتفاع ، ولا تغيّر عن سيرها وحركتها ، وهي مختلفة في قوّتها وتأثيرها ، وفي إشعاعها ، وفي دورانها ، وهي تسير وفق نظام منذ ملايين السنين لم يقترب كوكب إلى آخر ، ولم يهبط قليلاً أو يرتفع كثيراً كما قرّر علماء الرصد وعلماء الفلك .

إنّ هذا يدعو إلى التأمّل وخلق حركة في ذهن هذا الإنسان من خلقها ؟ كم مدّة وجودها ، ومدّة حركتها ؟ من خلق لها هذه الحركة المستمرّة بهذا النظام الدقيق ؟ ! كم عددها ؟ هذا وذاك هل هذا أكبر وهذا أصغر ؟ وبعد هذا الكوكب عن الأرض ، ودرجة الحرارة المختلفة فيها ، وهذه مجموعة لم تقترب إلى هذه المجموعة الأُخرى ولم تصطدم بأُخرى ، أليس هذا التنظيم الكوني دليلاً على أنّ هناك قدرة جبّارة مدبّرة ودليل وجود منظّم لهذا الوجود ، وبيده ملكوت السموات والأرض ، وبيده الكون إيجاداً ورعاية ونظاماً ، وأنّ في هذا دلالة على وجود خالق مبدع وهو الله تعالى ؟

٣ ـ واستدلّ القرآن بالظواهر ، ظاهرة الليل والنهار وتعاقبهما أحدهما يعقب الآخر .

٤ ـ واستدلّ بالأرض وما فيها من أسرار عجيبة ، من كساها بهذه القشرة وجعلها صالحة للحياة الزراعية ؟ إنّ هذه وغيرها من الأدلّة يقدّمها القرآن للبرهنة على وجود خالق إليه مرجع الأُمور ، قدّمها القرآن ونجح في دعوته إلى الله ، وهدم عبادة الأوثان الشائعة ، وشيّد عقيدة أساسها المعرفة والبرهان ، والاعتراف بالله خالقاً .



أدلّة قرآنية لإثبات إعادة الأجسام بعد الموت

وبعد نجاح القرآن بهذه المرحلة ، وبهذه الدعوة أعقبه بـالدعوة إلى الإيمان بإعادة هذا الجسم بعد استحالته إلى رميم وذرّات متطايرة هـنا وهناك .

وساق أدلّة تثبت قدرة هذا الخالق على خلقه هذا الجسم ، ووضـع الروح في هذا القفص ، فهو الذي وضع ، وهو الذي يسلب ، وهو الذي يعيد ، هذا كما خلقه أوّلاً ، هو هو .

١ ـ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْـمَثَلُ الْأَعْـلَىٰ فِـي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[١] .

ويذهب القرآن مـذهباً آخـر فـي بـيان قـدرته تـعالى أنّ خـلق هـذا الإنســان مـرّة ثــانية بـتعدّد أفـراده وأشكـاله وألوانـه هـو لا صـعوبة ولا استحالة في ذلك ، ومثل هذا الخلق والإيجاد هو كخلقة فرد واحد .

---

(١) الروم : ٢٧ .

٢ ـ ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[١].

٣ ـ ويدعو القرآن إلى التأمّل في الأرض والنبات فهو بين موت وحياة؛ لأنّه جسم فهو في فصل يموت، وفي فصل يتجدّد ويعاد وينمو، هذا منبّه قرآني أنّ الجسم النامي بين موت وحياة، وهو ما يدركه ابن الصحراء، ويشاهده الإنسان العربي الذي يرى الأرض في الشتاء ويشاهدها مرّة أُخرى في فصل الربيع وبعد نزول المطر وإحياء النبات، فالنبات بين حياة وموت.

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٢].

وفي آية أُخرى يشبّه هذه الظاهرة المحسوسة في النبات هي جارية على الإنسان:

﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[٣].

ويستدلّ القرآن بقدرة القادر على خلقة هذا الإنسان أوّلاً، فإنّها القدرة على خلقته ثانية:

---

(١) لقمان: ٢٨.

(٢) الروم: ٥٠.

(٣) الزخرف: ١١.

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾(١).

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾(٢).

ويواجه القرآن حملة من خصومه المكذّبين والمشكّكين ، والذين يرون ذلك ضرباً من الخيال ، ويستبعدون عودة هذا الجسم بعد الموت ، واستغربوا عودة الإنسان مرّة ثانية ، والقرآن يتحدّث عن خصومه :

﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾(٣).

ويعقبه بتخويف وتوعيد بعذاب شديد :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِن زَقُّومٍ ﴾(٤).

وتحامل الملأ وأوصوا إلى أتباعهم باستغراب وتكذيب وتعجّب واستبعاد بالحشر والمعاد بعد استحالة هذا الجسم إلى ذرّات وصيرورته رميماً وتراباً كما حكى القرآن قولة هؤلاء وهم يكذّبون

---

(١) يس : ٧٨ و ٧٩.

(٢) القيامة : ٣٧ ـ ٤٠.

(٣) الواقعة : ٤٧ ـ ٥٠.

(٤) الواقعة : ٥١ و ٥٢.

ويهزءون من دعوة القرآن ، ويرون ذلك ضرباً من المستحيل :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾(١).

ويعود القرآن ويتحدّث عن عقليّة هؤلاء التي رأت إعادة هذا الجسم بعد الموت ورجعة الحياة إليه من الأُمور البعيدة :

﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُنذِرٌ مِنهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾(٢).

وقد واجه القرآن في دعوته إلى الإيمان بالحشر الصعوبات ، وتركيز هذا الأصل في ذهنيّة الإنسان العربي ، وإقناعه بأنّه يموت ويعود كما هو ، إنّ هذا فوق عقليّة هذا الإنسان ، كيف يؤمن هذا الإنسان أنّه بعد موته وتفتّت هذا الجسم إلى ذرّات إنّها صعوبة لم يهضمها وقابلها بتشكيك وتأمّل وعناد وإنكار واستغراب ، أيكون هذا ؟ وكيف يكون ؟ ! وكيف يعود هذا الجسم مرّة ثانية ويعاد ويبعث من جديد ؟ !

إنّ إنسان اليوم وعقليّة هذا الجيل التي خلقت المعجزات ترى ذلك بعيداً ، وتعيش التشكيك والتردّد ، فكيف بالعقل العربي يوم دعاه القرآن كما صوّرها القرآن في أكثر من موقف .

---

(١) سبأ : ٧.

(٢) ق : ٢ و ٣.

وقد شكّك الإنسان العربي في عودته ، وأنكر آخر أن يكون بعد الموت عودة وحياة ، وصرّح به كثير من الشعراء العرب بالإنكار والاستبعاد ، واعتقد أنّ ذلك من أساطير القدماء.

ويواجه الداعي نماذج بشرية عجيبة وبردود فعل متعدّدة.

وهو يدعو ويتحدّث عن الجنّة والنار ، عن الثواب والعقاب ، يخوّف ويحذّر من نار جهنّم وحرارتها ، ويصف الجنّة وعالم الخلود واللّذة.

استعمل الداعي عاملين في دعوته: عامل الخوف والتهديد بأُسلوب خشن شديد ، وعامل الرجاء والتبشير خوف من العذاب والتعذيب ورجاء بالثواب والجزاء والإثابة ، فهو يقف ويهدّد ، ويقف مرّة أُخرى ويصف الجنّة وما فيها ، وينقل سامعيه إلى عالم تشتاق إليه النفوس إلى ما وراء هذا العالم بأُسلوب رقيق يأخذ بالسامع وكأنّه يراها أمامه ، فترتحل نفسه قبل الجسم المادّي.

فإذا ورد أنّ المؤمن عشق الجنّة ارتحلت نفسه إليها ، وأنّ المؤمن يعيش في سجن ؛ لأنّه أيقن بذلك العالم واستعدّ له ، وهو يرقب الموت ؛ لأنّ القرآن وصف له عالم السعادة والخلود والراحة والقرار ، وكأنّه أخذ بيده لإدخاله بستاناً أو حدائق ورياضاً ، وفيها المياه تجري فيلتفت ويرى أشجاراً ويحسّ باللّذة والاستقرار ، فكيف بالمؤمن الذي يعيش في دنيا العذاب والقرآن يصف له الجنّة:

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾[1] ، ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾[2].

ويكرّر القرآن أقواله : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً * وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً * وَكَأْساً دِهَاقاً ﴾[3].

وفي موقف آخر يصرّح القرآن : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾[4].

ويعلن في موقف آخر : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً ﴾[5].

ويتحدّث عن الفواكه والأشجار والبساتين ، وعن الحور من خلال وصف له تأثير في النفوس البشريّة ، فيصف الحور :

﴿ وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾[6].

وفي آية أُخرى : ﴿ عُرُباً أَتْرَاباً ﴾[7].

وفي أُخرى : ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ

---

(١) مريم : ٦٢ و الواقعة : ٢٥.

(٢) الغاشية : ١١.

(٣) النبأ : ٣١ ـ ٣٤.

(٤) يس : ٥٥ و ٥٦.

(٥) الدهر : ١٣.

(٦) الواقعة : ٢٢ و ٢٣.

(٧) الواقعة : ٣٧.

يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾(١) ، وغيرها كثيرة. لقد وصف القرآن عالم الجنّة بوصفٍ له الأثر في جذب السامع ، ونجاح الدعوة ، ودخول عدد ليس بقليل في الدين ، وأكثر من هذا خلق القرآن جيلاً من المؤمنين عشقوا عالم الجنّة ، وسهروا الليالي ، وقاموا في العبادة ، وزهدوا في هذا العالم المادّي ، عالم الشقاء والعذاب ، وقرّب القرآن سامعيه إلى طاعة الله ، إلى ساحة الخير ، والاستعداد إلى الرحيل إلى عالم ليكون مجاوراً للأنبياء والصدّيقين في عالم ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾(٢) ، ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾(٣) ، فصاغ القرآن عقليّة جديدة هي العقليّة الإسلاميّة ، وذوّب تلك الرواسب المطبوعة في ذهنيّة الإنسان العربي الذي كان كما صوّره القرآن :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا الَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِن عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾(٤) .

وخلق القرآن من هؤلاء نماذج من المؤمنين ، وغيّر عقليّة مَن كان يؤمن بفناء الدهر ، ومن كان يعجب من وجود حياة أُخرى وعالم أفضل من هذا العالم ، خلق من هؤلاء المتّقين الزاهدين ، ومن طلّق الدنيا وأعرض عنها.

---

(١) الرحمن : ٧٢ ـ ٧٤.

(٢) التوبة : ٧٢ و الصفّ : ١٢.

(٣) التوبة : ٧٢ و الرعد : ٢٣ و ...

(٤) الجاثية : ٢٤.

مواقف القرآن من الدعوة إلى الله

سجّل القرآن عدّة مواقف وقفها في الدعوة إلى الله تعالى ، وفي كلّ وقفة غلبة وانتصار ومكسب ، وفي كلّ موقف بطولة وصراع ، وفي كلّ موقف اندحار وتراجع للخصم .

ومواقف القرآن كلّها حرب ومقابلة لأبطال تحدّاها بشجاعة وسجّل واقع خصمه :

الموقف الأوّل :

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾[1] .

بهذه الجرأة والقوّة يتغلّب القرآن ويصول على خصمه .

---

(١) الصافات : ١٢ ـ ١٨ .

الموقف الثاني :

ونرى التباين والوضوح بين الموقف الأوّل وهذا الموقف ، والفرق بين هذا الخصم وذاك ، وهنا يقف مع النافين للحشر ، وهنا ندرك ثبات القرآن وقدرته على التغلّب ، واستعماله التأكيد في كلامه ، والقسم لعدوّه :

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾[١].

الموقف الثالث :

واستمرّ القرآن يقدّم الأدلّة المقبولة عقلاً وحسّاً يقدّمها للعقليّة العربيّة ، يقدّم أدلّته للوصول لغرضه وقصده ، وتحقيق غايته ومآربه ، فيسلك في ذلك التفهيم والبسط والإيضاح في إقامة المقدّمة والدليل والتوطئة لجلب ذهنيّة السامع وإعداده لإسماعه ما يريد قوله :

١ ـ فقد يسلك القرآن في ذلك مسلك القصّة ، وليس القرآن بالقصّاص الذي يقتل الوقت بسرد القصّة بمقدّماتها وأسبابها من غير غرض مقصود له وغاية ينشدها ، وإنّما يتّخذ من القصّة للوصول لغايته وسيلة له ؛ لأنّ الذوق العربي ينجذب للقصص ، ورغم هذا قبل حكاية القصّة يستعمل القرآن التنبيه على أنّه سيقصّ على سامعيه أحسن

---

(١) التغابن : ٧.

القصص ؛ لأنّه هو المرغوب فيه عند الأُذن العربيّة ، وهي تهوى ما حسن من القصّة ، فقد تكون القصّة طويلة أو قصيرة ، وقد تكون القصّة ذات أسباب.

والقرآن يقدّم الأسباب ، ويصل إلى النتيجة ، وحيث وصل إليها اتّخذ من ذلك سبباً ودليلاً وبرهاناً للغاية المقصودة له وبه ، وهي إقامة الحجّة على سامعيه.

٢ ـ وقد يستدلّ القرآن بقدرة الله على العظيم المحسوس ، ويتّخذ من ذلك القدرة على إيجاد ما دون ذلك ، ويكون من باب الأوْلى ، فإذا قدر على هذا الكبير فكيف بما هو أصغر منه ، فقد اعتبرت العقليّة العربيّة إحياء الموتى وإعادتهم مرّة ثانية وبعثهم كما كانوا في الدنيا في هياكلهم وجسومهم من الأُمور الصعبة وفوق العقل العربي ، ولكنّ القرآن بهذا الموقف يأخذ دليله من قدرته تعالى على بناء الأرض ورفع السموات ، وبهذه القدرة هي قادرة ومن باب الأوْلى ؛ لأنّ القادر على الصعب العظيم هو قادر على السهل.

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] ، وقدرة الله لا قدرة تشابهها.

---

(١) الأحقاف: ٣٣.

الموقف الرابع:

يستدلّ القرآن بهذا الإنسان العجيب أنّه عجيب في نفسه وذهنه وتركيبه وهندسة قالبه، ويجعل القرآن خلقة غير الإنسان من الحيوانات والنباتات واختلافها في اللون والطعم، والهياكل المختلفة لحيوانات متشابهة ومختلفة أنّها أحكم وأعجب من خلقة الإنسان الذي خلق بهذا الشكل البديع.

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِن طِينٍ لاَّزِبٍ * بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾(١).

وفي هذا الموقف صوّر القرآن خصومه وطبعهم أنّهم لا يذكرون، والسخرية بالحقيقة والاتّهام له والاستبعاد والاستحالة للبعث والحشر، ولكنّه بعد ذلك أرغم خصمه بأنّهم هم وآباؤهم **﴿ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾**.

الموقف الخامس:

ويقف الداعي يستدلّ للخصم، وبماذا يستدلّ؟ وهل هنا شيء في الوجود لا يدلّ على خالقه تعالى؟!

---

(١) الصافّات: ١١ ـ ١٨.

يستدلّ في الكرة الأرضيّة وما فيها من إبداع، وما عليها من نباتات واختلافها، وتزاوج هذه النباتات وبهجتها، رغم هذا والعدوّ الألدّ في نفور وهرب عن واقعيّة الدليل وغايته.

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[1].

ويوضّح لهم استدلاله في الأرض وأنّها آية دالّة على وجود الله تعالى.

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾[2].

وفي الأرض أكثر من آية هادية على وجوده تعالى، اختلاف وجه التربة، والحياة على وجه هذه الأرض، والنباتات، والكنوز الخفية في باطن الأرض، واختيار الأرض في الاستدلال في أكثر من مناسبة ملائمة للذوق والفطرة والحياة العربيّة.

فالإنسان العربي أين يعيش؟ وعلام يمشي ويزرع؟ فإذا تلفّت

---

(١) الشعراء: ٥ ـ ٩.

(٢) يس: ٣٣ و ٣٤.

شاهد أرضاً بسيطة قاحلة وبيداء واسعة ، فهو يعيش ويـزرع فـي هـذه الصـحراء ، وإبـله تسـرح وتـمرح وتـذهب وتـعود فـي هـذه الأرض الواسعة .

ويصرّح القرآن : ﴿ **أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَىٰ الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** ﴾[1] ، وهـل يرى العربي في بيئته ومحيطه غير هذه الأربعة ؟ فهو يشرب مـن مـاء المطر ويرتوي من عيون الأرض ، ويرقب السماء تجود عـليه ليـزرع فتنبت الأرض العشب ليكون مأكل حيوانـاته ، ويـعلن القـرآن نـماذج وفصولاً منها مطابقة لذهنية سامعيه ليقرب هذا المتباعد النـافر العـنيد إلى الله تعالى ، وبهذا حقّق نجاحاً .



---

(١) الغاشية : ١٧ ـ ٢٠ .

نجاح الداعي في الدعوة إلى الله

الدعوة الإسلاميّة دعوة إلى الله وتوحيده ، ودعوة إلى الإيمان به ونبذ عمّا سواه من الآلهة ، ودعوة إلى الاستقامة والسعادة ، ودعوة إلى العدالة والإنسانيّة.

إنّها دعوة موفّقة ناجحة ونجاحها يستمدّ من قوّة وإرادة الداعي ، فإنّ الداعي كان موفّقاً ناجحاً جامعاً لمقوّمات شخصيّة الداعي ، فليس كلّ من دعا إلى الفضيلة كان ناجحاً.

ولكنّ الداعي إلى الإسلام كان داعياً مثالياً رغم العقبات التي اعترضت طريق الدعوة.

ومن الطبيعي أنّ الدعوة إلى الخلق والإصلاح ليس من السهل نجاحها ، ففي طريق المصلحين عقبة وأُخرى ، ولكنّ الداعي الناجح هو الذي يقتحم تلك العقبات ، وفي طريق الدعاة صعوبة وصعوبة ، ولكنّ الداعي الموفّق هو الذي يذلّل هذه الصعوبة ويتغلّب عليها ، وأنّ

الدعاة الذين يفاجئون الأُمم بالدعوة الجديدة سيجدون رواسب قديمة ، فكيف يزيل تلك الرواسب ويغرس ما يدعو له وجاء من أجله ، وبُعث له ، فيضع المخطّطات ، ولا بدّ للداعي من نهج ، ولا بدّ له من مخطّط يسير عليه مهما كلّف الأمر ، ولا بدّ للداعي من غاية ينشدها ويُبعث من أجلها وجاء داعياً لها .

ولا بدّ للداعي من مقوّمات لشخصيّته ، وللدّاعي الموفّق مناهج وقوى وأساليب ، وهنا يفترق الدعاة بين الفشل والنجاح .

ومن هنا نرجع للداعي والدعوة الإسلاميّة التي قدّر لها أن تحقّق أهدافها بفترة وجيزة لا تتجاوز عشرين سنة رغم كلّ ما اعترض الداعي من عقبات وتغلّب عليها .



عقبات في طريق الدعوة

لقد وقفت أمام الدعوة عقبات ، واعترضت طريقها عدّة مشاكل صعاب ، ولكنّ إرادة الداعي وعزمه واعتماده على ربّه ونهجه على ما خطّط له ، بهذا وغيره من عوامل استطاع أن يتغلّب ويذلّل كلّ صعب ، ويحقّق الانتصارات في أقصر مدّة زمنيّة ، والعقبات التي وقفت في طريق الدعوة يمكن إيجازها :

١ ـ الأصنام ، وتعلّق الإنسان العربي بها ، وتعصّبه لها .

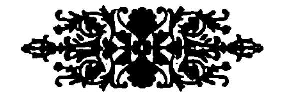
٢ ـ تخلّف الذهنيّة العربيّة عن إدراك الدعوة ، وحقيقة المفاهيم الجديدة كالوحدانيّة لله تعالى ، وإعادة الإنسان إلى حياة أُخرى ، ووجود عالم وراء هذا العالم ، فيه عذاب نفسي ، ولذّة نفسيّة ، ثواب وعقاب .

٣ ـ وجود زعامات وقفت في طريق الدعوة حبّاً بإبقاء الزعامة العشائرية .

٤ ـ وجود عقائد قديمة ورواسب دينيّة موروثة.

٥ ـ وجود طبقات ذات نفوذ وسلطة[١] وأتباع، ولهم تأثير على الآخرين في المجتمع العربي، وهم الذين دافعوا عن الآلهة.

٦ ـ وجود عادات وتقاليد وعلاقات ليس من السهل إزالتها ورفعها وإبدالها بأخلاق وفضائل إسلاميّة.



---

(١) كانت قريش صاحبة الكلمة العليا في الجزيرة العربيّة سياسيّاً واقتصاديّاً ودينيّاً وأدبيّاً، وهي السبب في الحيلولة وإيقاف حركة انتشار الدين الجديد في أنحاء من الجزيرة العربيّة، ولمّا رأت العرب موقف قريش من الدعوة الجديدة تريّثت في الدخول حتّى تتجلّى الحقيقة وتنتهي المعركة، وتروّت في الاعتراف بالدعوة وقريش هي ذات السلطة العليا، وهي المرجع، وباقي القبائل هي تابعة لقريش في كلّ أمر من أُمور الدين والدنيا، ولمّا نصر الله نبيّه على قريش وعلى أعدائه من اليهود فأباد قسماً، واستسلم القسم الآخر: وهم خيبر وبنو النضير، وأجلى القسم الثالث إلى الشام دخلت هوازن وثقيف ووفدت القبائل إلى الرسول معلنة دخولها في الدين الجديد، كما أوعد الله نبيّه من قبل بهذا الفتح، وأنّ القبائل تدخل في الدين الجديد أفواجاً أفواجاً.

عوامل النجـاح

قيل: إنّ رسول الله ﷺ داعٍ ناجحٍ موفّق، فكيف دعا ونـجح؟ ومـا هي وسائل النجاح؟ ويمكن اختصارها بما يلي، لعـلّ الداعـي إلى الله يسلكها ليحقّق نصراً في دعوته:

١ ـ خُـلق الرسـول الذي كـان ذا جـاذبية وكـهربة لعـدوِّه، فـينقلب صديقاً حميماً، والرجل الخشن الوقح الجلف يتحوّل إلى إنسانٍ رحيمٍ عطوف.

٢ ـ صبر رسول الله ﷺ على كلّ ما صنعه عدوّه مـعه، حـتّى سـبب سأم عدوّه وكفّه عن الحرب والمعارضة والحـيرة فـي حـربه، وأخـيراً تراجعوا.

٣ ـ إرادة النبيّ ﷺ التي لم تقهر، وعزمه الذي لم يلو ولم ينثنِ بكلّ وسيلة معنويّة أو اقتصاديّة أو أمنية، فقد صنع عدوّه كلّ ذلك.

٤ ـ اتّباع المخطّطات المرسومة له لمعالجة الأُمور ومقابلة المشاكل الصعبة.

٥ ـ في الدعوة الإسلاميّة قابليّة ومرونة وجاذبية تذوّقها الداخلون فيها ، فأثّروا على أولادهم أو آبائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أو الآخرين الذين اعتنقوا الإسلام ؛ لأنّ من دخل قبلهم ارتفع ميزانه ، ووعى ، وتغيّر تفكيره ومنطقه ، وازدادت ثقافته ومعرفته ، فكان أُمّيّاً تعلّم القراءة ، وكان لا يجيد الكلام الحسن تحوّل إلى النطق بالقرآن وبالحديث النبوي ، ويتحدّث بأُمور الدين والدنيا ، واكتسب من الدين عزّة ورفعة ، وصار جليس الرسول ، وصار من المقرّبين ، وصار ذا مال وبيت ، وبقي غيره لا يجد من ذلك نصيباً ، فهرع ملتحقاً بالسابقين قبله والداخلين إلى الدعوة الإسلاميّة ، وارتوى من ينبوعها.

﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[١].

٦ ـ لا يمكن نكران العامل الاقتصادي لبعض الداخلين وأثره في واقعهم للدخول في هذا الدين ، فيكسب من المغانم والغنائم ، ويأخذ من عدوّه الذخائر والأموال والحيوانات ، وفي العرب من يندفع إلى ذلك.

٧ ـ وسبب آخر التحق فريق وهاجر إلى الإسلام ؛ لأنّه متحرّر من عبادة الكفر والشرك ، وفي ذلك قيد ، وفي الإسلام حريّة للفكر من هذه الخرافة التي بقي يعيش عليها الإنسان العربي فيعبد الأصنام والحجارة الصمّاء ، فأسرع لتحرير نفسه من الكفر ، ودخل في

---

(١) الجمعة : ٣.

الإسلام وحرّر نفسه من العادات والتقاليد السخيفة لا لغرض مادّي يطلبه ، فكم من غنيٍّ ثريٍّ ذي مالٍ كثيرٍ تركه وأسرع إلى الدخول في الإسلام.

٨ ـ وسبب آخر كان له جذب عدد ليس بقليل ، وهو أنّ في الإسلام قوّة ، وفي الإسلام جيش نظامي يتكوّن باللحظة الأُولى ليدافع عن عاصمة الدعوة ومقرّ الداعي ، ويدافع عن أهله ، وما كان موروثاً في النفوس من الرواسب القديمة من طلب القبائل بعضها لبعض من الدماء وأخذ الثأر بعضها من الآخر ، ولا يجد قوّة يأخذ حقّه ، وإذا أصبح في الإسلام جيش يحارب عدوّ الله ، فالتحق الفرد العربي ليكون إنساناً مسلماً يحمل سيفه يقاتل في الصفّ الأوّل بقوّة وجرأة مع إخوانه ليأخذوا ثأرهم من أعدائهم العرب الذين أصرّوا على البقاء على الكفر وعبادة الأصنام ، وفرّق بين مقابلة العدوّ بأسره ، أو بأفراد ، أو بجيش كثير العدد.

٩ ـ التسامح الذي سلكه الرسول مع عدوّه ، فكان يدرأ بالحسنة السيّئة ، ومن يستحقّ العذاب الأكبر يتساهل معه ويقرّبه ، ويمنحه رتبة الجباية ، أو يعطيه عملاً كما صنع الرسول مع بني أُميّة وأبي سفيان بالذات ، قرّبه وأعطاه جباية الصدقات ، وأعطى لأهله النصيب الأوفر من الكتابة والقراءة.

١٠ ـ المصاهرة ، وكان لها السبب النفسي والعاطفي ، فأخذ الرسول صلى الله عليه وآله وأعطى لقبائل عربية فدافعوا عنه ، وتعصّبوا من أجله ، ودافعوا عنه ، ودخلوا الإسلام.

الداعي يحرّر الذهنيّة من الأساطير الموروثة

واجه القرآن حملات مختلفة ، ونماذج بشريّة متفاوتة ، وطبقة كان لها الدور في محاربة تيّار القرآن ، وعقليّات عجيبة في إدراكها ، ووجد ذهنيّة ضيّقة كانت تعيش التخلّف الموروث ، وجد هذا وذاك ولكنّه وقف مقاوماً وثبت أمامه ، واجتاز هذه العقبات ، وأثّر أثره في الذهنيّة العربيّة .

ويدعونا إلى التعرّف على المستوى الذهني الذي كانت عليه الأُمّة العربيّة والمستوى الذهني الجديد الذي وصلت إليه بعد نزول القرآن ، وهل للقرآن أثر في هذه الذهنيّة ؟ والقرآن تيّار جديد على العقليّة العربيّة جاء يحمل معه الدليل والدعوة ومحاربة ما هو عندهم .

وكان لهذا التيّار آثاره الكثيرة على ذهنيّة الفرد العربي ، فقد بدأت حركة الأسئلة من الفرد العربي ، والسؤال الذي فيه دلالة على تأثّر هذه الذهنيّة بالقرآن ودعوته وأفكاره ومفاهيمه التي بدأ يدعو لها ويقيم عليها أدلّة مقبولة .

والأسئلة التي حكاها القرآن:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّي ﴾(١).

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾(٢).

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾(٣).

﴿ سَأَلَ سَائِلُ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾(٤).

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾(٥).

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾(٦).

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ﴾(٧).

﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾(٨).

هذه وغيرها، والقرآن يقدّم الأجوبة بإيجاز ليقنع السائل أنّ القرآن خلق تفكيراً جديداً، وخلق عقليّة غير العقليّة الأُولى وغيّرها وصقلها وطبع فيها مفاهيم لم تكن، ولم يعرفها الإنسان العربي، ولم يفكّر بها؛

---

(١) الإسراء: ٨٥.

(٢) البقرة: ١٨٩.

(٣) النازعات: ٤٢.

(٤) المعارج: ١.

(٥) البقرة: ١٨٦.

(٦) النبأ: ١ ـ ٣.

(٧) الأحزاب: ٦٣.

(٨) الذاريات: ١٢.

لأنّها لم تمرّ عليه ، ولم يسمعها ، والقرآن غيّر نظرة الإنسان العربي وإحساسه وفلسفته وتعليلاته وأخلاقه ونفسيّته ومزاجه ، وهو الذي زكّى الإنسان العربي ، وصقل نفسه ، وبلور فكره ، فأدرك الإنسان العربي كيف كان قبل القرآن ، وكيف أصبح في نفسه ، وفي إدراكه ، وفي تعليله بعد نزول القرآن ، وإذا بالإنسان العربي الذي عاش في الضلال ، وكان قابعاً على الشرك ، وخاضعاً للأصنام يأمل من الصنم ويرجوه ، تغيّر ووعى.

كان الإنسان العربي تتضارب فيه عدّة نزاعات سلبيّة وإيجابيّة ، يعيش في قلق ، وتتجاذبه عدّة نزعات ، فتارة يعبد الشمس والقمر والنجوم والأصنام ، ومرّة يعدل إلى هذا وذاك ، ومرّة يعبد بهذه العبادة ، ومرّة يستحسن هذا السلوك ، ومرّة يشاهد غيره نتيجة الهجرة والرحلة والالتقاء بغيره ، فهو يعيش بتردّد وتأرّجح بين القديم والجديد ، فيأخذ قسماً من هذه العقيدة ويؤمن به ، ويكفر بما هو يعمل به ، ولكنّ الإسلام أنار عقليّة الإنسان العربي ، واستقرّ على عقيدة ثابتة هي عقيدة التوحيد بالله.

وللجدل القرآني وأدلّته أثر ذهني نمّى فيه عقليّة الإنسان العربي ، والنقد القرآني الشديد وكلماته الخشنة اللاذعة لها وقع في نفس الإنسان العربي ، وللأدلّة القرآنيّة ردّ فعل في إحداث سلوك ، وكسب عدد ليس بقليل ، بفترة وجيزة انفتح الباب ودخله مؤمنون هاجروا هنا

وهناك ليلتحقوا بالدعوة والشريعة ، فغسل القرآن ذهنيّة الإنسان العربي ، ونبّه تلك الذهنيّة إلى ما حول هذا الإنسان ، وإلى ما فوقه ، وإلى هذه الأرض ، وإلى هذه الحيوانات وأنواعها ، وجعل فيه قابليّة على التأمّل والحسّاسية القوية والحركة الذهنيّة ، فوعى وفكّر وتدبّر وأدرك ، وكان للأساليب القرآنيّة ـ استفهاماً أو نفياً أو إنشاءاً أو خبراً أو ذمّاً ـ إيصال سامعيه إلى درجة من الاعتراف بالعجز والفقر الذاتي ، وعدم قدرة هذا الكائن على إيجاد شيء ، وإيصال سامعيه إلى وجود قدرة جبّارة يجب الرجوع لها ، والاعتراف بها ، ولا بدّ من الاعتراف ولا مفرّ ولا مسلك يهرب إليه الذهن ، وما عليه إلّا التصديق بالله خالقاً.

هذا هو القرآن ، وهذا جواب وحكاية سامعه للاعتراف العقلي ، وسلطان العقل يجب الخضوع إليه ؛ لأنّه هو المسيّر للإنسان إن كان عاقلاً يدرك عقله ، ومن فصيلة المفكّرين العقلاء.

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَءِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ تَعَالَى

اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَهُ مَّعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١).

وأُسلوب القرآن في هذا الاستفهام والجواب هو إيصال هذا الإنسان إلى مرحلة الحاجة والفقر والعجز ، وأنّ فوقه قدرة حاكمة ، وله تصريح ثانٍ إذ يقوم بحملة على أصنام العرب والمعتقدين بها لغرض بيان أنّها لا تقدر على شيء ، ولا توجد ولا تحقّق شيئاً.

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِن غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾(٢).

وهنا يقف في هذا الموقف الخطر أمام أتباع ورجال يعتقدون بها آلهة ، وهو يسمعهم بلا خفاء ، ويقف أمام أُمّة تعلّقت بأصنام ، ويعلن بصراحة : أيّها المتعصّبون لها بلا عقل ترجعون إليه وتحكّمونه وترجعون إليه ، أيّها المتعلّقون بأصنامكم ، أهي مخلوقة أم خالقة ؟ أهي خالقة فماذا خلقت ؟ أهي خالقة لهذه السموات والأرض ؟ أهي مالكة لخزائن وكنوز الأرض ؟ أهي ترزقكم وترزق غيركم ؟ أو ترزق الحيوانات ؟ أهي المسيطرة وبيدها القوّة والقدرة والحكم ؟ ويريد القرآن بهذا أنّها مفتقرة في وجودها إلى علّة أوجدتها وخلقتها وهي حجارة جامدة.

---

(١) النمل : ٦٠ ـ ٦٤.

(٢) الطور : ٣٥ ـ ٣٧.

وبهذا الأُسلوب توصّل القرآن إلى إفهام وتنوير عقليّة الإنسان العربي ، إنّها إذا لم تكن خالقة إذن هذه السموات التي ترونها موجودة ومحسوسة من خلقها ، وهذه أرض ـ وأنتم تعيشون وتمشون وتزرعون وتأكلون منها ـ ذات حدائق وينابيع وعيون مختلفة ، إذن من خلقها ؟ وهذا ماء جارٍ أُنزل من السماء ، مَن أنزله ؟ وهذه نباتات مختلفة وهي نابتة في أرض واحدة وطعمها مختلف من هو الذي نوّعها ؟ بهذه الأدلّة وبهذه البراهين ازداد العقل العربي قوّة ونموّاً ووعياً وإدراكاً بأنّ هناك قدرة وعلّة أبدعت في الوجود ، وأنّ الأشياء والآثار فيها دلالات على وجود الله تعالى .



أثر القرآن في تطوّر العقليّة العربيّة

نزول القرآن في المحيط العربي يعتبر أثراً هامّاً ، خلق تفكيراً جديداً ، ومنطقاً جديداً ، وإطاراً ذهنيّاً وآفاقاً لم تكن قبل نزوله ، وخلق مفاهيم حديثة ومعركة جدلية حاسمة حامية فاصلة بين إنسان عربي يعيش الكفر ويؤمن بالأصنام أرباباً وبين إنسان مؤمن آمن بالإسلام.

١ ـ وجد القرآن التفكير القديم قائم على :

أ ـ الأصنام أرباب أجدادنا ورثناها.

ب ـ الأصنام تقرّبنا إلى الله زلفى.

ج ـ ﴿ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾[١] ، ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[٢].

د ـ ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[٣].

---

(١) لقمان : ٢١.

(٢) الزخرف : ٢٢.

(٣) الزخرف : ٣١.

هـ ـ كيف يكون محمّداً نبيّاً وهو فقير يتيم !

و ـ ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[١].

ز ـ ﴿ ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[٢].

ح ـ ﴿ إِنَّ هٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ * فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٣].

٢ ـ وجد العناد والتعصّب ، ووجد الأوهام والأساطير والاصرار على الباطل ، وجد الإنسان العربي يسيّره ذوو النفوذ ، وتابع لأقوالهم ولأهوائهم ، وما قاله ذوو الجاه وما يدعون إليه هؤلاء إلى الباطل ، ومحاربة القرآن أو معارضته أو الشكّ في صحّة نزوله صفق هؤلاء بلا عقل .

٣ ـ وجد أخلاق الإنسان العربي وانشغاله بأُمور رائجة في المحيط ، وجد سوق الفخر والافتخار رائجة .

٤ ـ وجد الإنسان العربي يتعجّب ويستغرب من إعادة هذا الجسم ﴿ وَيَقُولُونَ ءَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾[٤].

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ

---

(١) ص : ٥.

(٢) المؤمنون : ٨١ ، الصافّات : ١٦ ، الواقعة : ٤٧.

(٣) الدخان : ٣٤ ـ ٣٦.

(٤) الصافّات : ٣٦.

مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[١].

وجد القرآن الإنسان العربي يعيش الكفر والشرك ولا يدرك أنّه شرك، وجد كفراً شائعاً، ومعبودات متعدّدة، وشركاء اتّخذها الإنسان العربي أنداداً من دون الله تعالى، تعبد وترجى في الشفاعة ويخضع لها الإنسان العربي بذلّ وانحناء وركوع ودعاء، ويطوف حول هذه الهياكل، وينحر لها، ويفتخر بها، ويسكب الطيوب عليها ويتباهى بها، ويظهرها بالمظهر اللائق أمام الآخرين.

وإذا بالقرآن يعلن بلا هيبة ولا رقابة ولا حذر أمام الملأ:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾[٢].

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[٣].

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[٤].

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[٥].

---

(١) سبأ: ٧.

(٢) الحجّ: ٧٣.

(٣) النحل: ١٧.

(٤) النحل: ٢٠.

(٥) النحل: ٧٣.

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُون كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً ﴾[١].

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً ﴾[٢].

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِن غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾[٣].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِن قَبْلِ هٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِن عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٤].

﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[٥].

قدّم القرآن هذه المنبّهات وهذا النقد اللاذع ، إنّها مرحلة إعداد وأعقبها أدلّة واعتراف بأنّ الله هو الخالق لا محالة ولا مفرّ منه وإليه الرجوع وإليه الفرار ، ولا مفرّ لهذا العقل إلّا أن يقرّ به تعالى .

---

(١) الإسراء : ٥٦.

(٢) الفرقان : ٣.

(٣) الطور : ٣٥ ـ ٣٧.

(٤) الأحقاف : ٤.

(٥) الزُّمر : ٣٨.

﴿ أَوَلَم يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً ﴾(١).

وإذا بهذا الإنسان يعترف ، وإذا بهذا المشكّك المتردّد يقرّ بالله تعالى.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(٢).

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(٣)

﴿ قُلْ مَن رَبُّ السَّماوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾(٤).

وقد يتّخذ القرآن من الحديث والقصّة عمليّة توعية وتنبيه ونقد لسامعيه وتقريبهم إلى التوحيد والإيمان بالله ، فهو يتحدّث عن إبراهيم الذي واجه ما واجهه الرسول من وجود أصنام وأتباع ومدافعين عنها ، وصال عليهم ، وكسر الأصنام بعد إقامة

---

(١) الإسراء: ٩٩.

(٢) الزخرف: ٩ و ١٠.

(٣) الزمر: ٣٨.

(٤) المؤمنون: ٨٦ و ٨٧.

الدليل ، وتبيان الخطأ الذي عاشه الانسان القديم.

وقدّم القرآن أكثر من منبّه ، وأكثر من نقد ، وأكثر من وسيلة توعية: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾(١).

وفي سورة أُخرى يتحدّث عن إبراهيم وهو يكسّر أصنام قومه ، ويُقدّم للمحاكمة العلنيّة أمام الناس ، وهو يقدّم هذا الدليل على بطلان هذه العبادة وأنّ المعبود هي الحجارة.

﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(٢).

ويستمرّ القرآن فيتحدّث عن موقف إبراهيم وجرأته أمام الناس الذين يقدّسون الأصنام.

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٣).

هذا نموذج من مواقف الداعي مع خصمه العنيد ، وكيف استطاع أن يبلور ذهنيّته ويقرّبه إلى الله ، وإرشاده إلى طريق الله وسبيله العادل

---

(١) الصافّات: ٩٣ ـ ٩٥.

(٢) الأنبياء: ٦٢ ـ ٦٤.

(٣) الأنبياء: ٦٦ و ٦٧.

ليسلكه ؛ لأنّه عبد مخلوق له ويؤمن به خالقاً قادراً بيده الأُمور ، ولا يستطيع هذا العبد كلّ شيء لنفسه ، هذا جانب من جوانب نجاح دعوة القرآن إلى الله .



نجاح الدعوة في إثبات وجود الله

قطع القرآن مسافات ، ونزل ميادين ، وتغلّب على مشاكل ، وأقام أدلّة كثيرة ناجحة في إثبات وجود الله تعالى ، وكلّها من واقع البيئة العربيّة حسّ بها العربي وتقبّلها.

إنّ هذا اللون من الاستدلال أقرب إلى ذهنيّة الإنسان العربي ، ولذا نجح القرآن ؛ لأنّه أقام أدلّة يدركها العقل بدون تكلّف ومشقّة ، ويأخذ بذهن سامعه وإحساسه ، ويأخذ بيده إلى عالم جديد من التفكير استدلّ في تركيب الإنسان وتكوينه.

ومنطق القرآن في الاستدلال في آياته ، مؤدّاها ومنطوقها:

* تأمّل جسمك وتركيب بدنك بهذا الشكل العجيب ، وبهذه الاستقامة ، ومن أوجد فيه هذه الحواسّ والأجهزة العجيبة والإفراز والحركة والتفاعل والتأثّر والتكاثر ؟

* واستدلّ في الفصيلة الحيوانيّة واختلافها ، ومنطقه ومؤدّاه: لو

أخذتك إلى حديقة حيوانات فيها حيوانات مختلفة وتأمّلتها فقد تتوصّل إلى نتيجة أنّها ذات سلوك خاصّ بكلّ نوع منها ، وأنّها مخلوقة وذات ألوان وصور بديعة وهياكل وأصوات مختلفة ، إذن إنّها مخلوقة ولها خالق أوجدها من هو ؟

* ويستدلّ في النباتات.

ومنطوق هذا الدليل : لو أخذتك إلى مزرعة أو بستان فيه نباتات وأشجار ونخيل مختلفة بالطعم وهي تسقى بماءٍ واحد ، وغرست في أرضٍ واحدة.

وفي مسألة التوحيد التي تحدّث عنها القرآن وأقام أكثر من برهان ، وأثبت للعرب وجود الله وقدرته وسائر صفاته وإبداعه ، وتحدّث عن صفاته ، وأعلن صوته معلناً في أكثر من آية :

﴿ رَبِّ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُوقِنِينَ * لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾[(١)].

﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾[(٢)].

بهذه الأدلّة التي قدّمها القرآن استطاع أن يحقّق النجاح ، ويطهّر البيئة العربيّة من الكفر والشرك ، ويغسل ذهنيّة الإنسان العربي من الخرافات والأساطير ، ويقطع بذلك ميادين وميادين ويخلق الكافر

---

(١) الدخان : ٧ و ٨.

(٢) الزمر : ٦٢.

مؤمناً ، ونزّه نفسيّة الإنسان العربي ممّا كان عالقاً ومطبوعاً فيها من الطباع الموروثة ، وبذلك حقّق القرآن نجاحاً في صياغة عقليّة جديدة ، ونفس واعية ، وطهّر نفسيّة الإنسان العربي ممّا هو عليها ولد وعاش ، وهذا ليس بأمر سهل بعد ما وقف الداعي مواقف حاسمة فنزّه الإنسان العربي من التعصّب القبلي ، والتقليد الأعمى الذي كان مألوفاً وشائعاً ورائجاً عند الآباء ، ويورث إلى الأبناء تلقائيّاً.

هكذا كان الإنسان العربي يأخذ ويكتسب من أبيه ، ويطبع في ذهنه ، ويصاغ الفرد العربي في تفاعل كان مألوفاً عند العرب ، ولا يعرف هذا إلّا أن نرجع إلى القرآن لنعرف الإنسان العربي يوم فاجأه القرآن وأعلن الداعي نداءه الأوّل: قولوا: « لا إله إلّا الله » ، والقرآن سيحكي لنا هذا المستوى الذهني للإنسان العربي عند نزوله ، وتعرف الأمر جليّاً من أقوال الإنسان العربي ومعارضته للدعوة وأجوبته ، ثمّ كيف تحوّل إلى إنسان يقول ويجادل ويخطب ويجاهد ويلقي خطبة طويلة رنّانة تتناول جوانب مختلفة ، وهذا من فضل القرآن وآثاره.

وأكثر من هذا يعود الإنسان العربي ويلقي بالأصنام المعلّقة المرفوعة الموضوعة في شرفات مكّة يلقيها ويكسّرها.

وذهب عليّ عليه السلام بشرف ذلك ؛ لأنّه السابق إلى كلّ مكرمة.

* ونجاح القرآن في إيصال الإنسان العربي إلى مرحلة من التفكير ،

وأكثر من هـذا إلى مسـتوى رفـيع مـن الإدراك والتـأمّل الجـديد أنّ له خالقاً ، وقد أقام لهم أدلّته ، وأعلنوا اعترافـهم بـالله ، والعـقل أجـبرهم وألجأهم إلى الاعتراف به ، ولا بدّ ولا مفرّ من الاعتراف بالله :

﴿ قُل لِمَنِ الْأَرْضُ وَمن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلهِ قُل أَفَلا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَبُّ السَّماوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾[١] .



(١) المؤمنون : ٨٤ ـ ٨٩.

الدعوة إلى الله

دعوة إلى الله ، إلى نبذ الأصنام ، إلى عبادة الله وترك عبادة الآلهة ، هي دعوة القرآن.

وأعلن القرآن صوته عالياً:

﴿ اللهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾(١).

﴿ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٢).

وأعلن القرآن صوته عالياً يوم كانت العبادة والاعتراف بأصنام منصوبة ، وأعلنها صريحة غير هيّاب ولا مراقب ، بلا خشية من

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) الحشر: ٢٢ ـ ٢٤.

سلطان الأرض، أو من دعاة الباطل، أعلن القرآن:

﴿ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنَىٰ ﴾.

﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾[١].

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٢].

﴿ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[٣].

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[٤].

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾[٥].

﴿ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٦].

﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[٧].

﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[٨].

---

(١) سورة التوحيد.

(٢) الحديد: ٣.

(٣) البقرة: ١١٥.

(٤) القصص: ٨٨.

(٥) البقرة: ١١٥.

(٦) القصص: ٧٠.

(٧) البقرة: ٢٥٥.

(٨) الأنعام: ١٠٢ و الرعد: ١٦ و الزمر: ٦٢ و ..

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾[١]

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾[٢].

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾[٣].

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾[٤].

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾[٥].

﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾[٦].

﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[٧].

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[٨].

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[٩]

﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾[١٠].

---

(١) البقرة: ٢٥٥ و النساء: ١٧١ و ...

(٢) الأحزاب: ٢٧ و الفتح: ٢١.

(٣) الأنعام: ١٠٣.

(٤) البقرة: ١١٥.

(٥) البقرة: ١٨٦.

(٦) فصّلت: ٥٤.

(٧) الأنعام: ١٠٣ و الملك: ١٤.

(٨) النور: ٣٥.

(٩) البقرة: ١١٧ و الأنعام: ١٠١.

(١٠) البقرة: ١٦٣.

﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾[1].

هذا صوت القرآن في الدعوة إلى الله تعالى والإكثار من بيان صفاته ، وكان لهذه الآيات أثرها التقريبي والجذب لذهنيّة الإنسان العربي.



(١) آل عمران: ٥.

الاعتراف بالنبوّة

دعوة القرآن إلى التوحيد ، ودعـوته إلى النـبوّة أعـقبتها دعـوته إلى الحشر والبعث والإيمان بوجود عالم وراء هذا العالم المادّي ، هو عالم الثواب والعقاب ، عالم العدالة ، وهـو عـالم الآخـرة ، إنّ هـذا وغـيره كان من الأُمور الصعبة التي لم تلق تقبّلاً من العقليّة العربيّة ، ويجدون ذلك فوق عـقولهم ، فكـيف إذن والقـرآن مـبلّغ وحـامل رسـالة وداعٍ إلى شريعة !

كيف والرسول يعلن ذلك جهراً ، ويعيد ويكرّر من أقواله ! والواقع العربي لا يسمع مـثل هـذه الأقـوال ، ولا يـجد لهـا مـقرّاً فـي النـفس والذهن ؛ لأنّها تقارب المستحيل .

كيف يكون محمّد نبيّاً دون غيره من الرجال والزعماء ؟ ! وقد وقف في طريق ذلك عـقبات وعـقليّات ونـماذج بشـريّة قـويّة ذات نـفوذ ، فكيف الاعتراف بالنبوّة لمحمّد ، وهل هي زعامة جديدة وهم زعـماء

العرب ؟ ! فثارت قريش عليه حرباً. وفي المجتمع العربي زعامات قبليّة ، وروح عشائريّة ، ورئاسة قويّة متشعّبة متعدّدة ، ولكلّ أُسرة رجل كبير مسؤول ، وللقبيلة وجودها وحدودها ، ذات سيطرة ونفوذ وصولة ، وللرئيس إطاعة ، ويرجع إليه في الأُمور العامّة ، وبين قبيلة وأُخرى تصادم ومعارك وغارات ، وهذه ترى القوّة على الأُخرى. فكيف بمحمّد الذي عاش بينهم ، مات أبوه وجدّه ، ويريد أن يكون نبيّاً ، وهل يريد إلّا أن يتفضّل عليهم !

ومن العرف الاجتماعي العربي أنّ الرئيس هو الذي تجتمع فيه المؤهّلات الآتية : ابن القبيلة ، ومن أشرف بيوتها ، وأنّه الرجل الشجاع الذي شهدت له المعارك ، وأنّه الكريم والثري والمنطيق ، أو الشاعر المدافع عن قومه ، هذه المؤهّلات هي التي تخلق منه زعيماً على تلك القبيلة ، وإذا بمحمّد يريد أن يكون نبيّاً !

وفي تفسير العرب للنبوّة أنّه يدّعي الزعامة عليهم ، وليس هو بالإنسان الذي تكاملت فيه تلك المؤهّلات كلّها ، قد عاش بينهم أربعين سنة فقيراً يتيماً عُرف بالصادق الأمين ، وأنّه ليس بالإنسان الغريب ، هم يعرفونه عربيّاً يتكلّم بلسانهم ، يأكل ويشرب ، كيف ينزل عليه القرآن ويُختار للنبوّة وهو ليس من العظماء ؟ ولماذا اختير محمّد دون غيره من عظماء العرب ؟ !

هذا هو منطق الإنسان العربي وحكايته.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾(١).

﴿ وَقَالُوا مَالِ هٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾(٢).

وما دام الرسول بشراً ويجابه من خصومه بردّ فعلٍ كهذا ، فإنّه سيدخل في نفسه ألم ، ولكنّ القرآن بعد هذا يفاجؤه :

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً * تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾(٣).

ليس هذا وينقطع القرآن عن الرسول ، وإنّما ينزل عليه مرّة بعد أُخرى تسلية وتقوية من إرادته لينطلق بقوّة أقوى وأشدّ عزماً وانطلاقاً ومضيّاً نحو ما قرّر له ورسم .

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾(٤).

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾(٥).

---

(١) الزخرف : ٣١.

(٢) الفرقان : ٧ و ٨.

(٣) الفرقان : ٩ و ١٠.

(٤) النحل : ١٢٧.

(٥) ق : ٤٥.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾(١).

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾(٢).

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾(٣).

كيف والداعي ينزل عليه القرآن ويكرّر قوله وطلباته وأوامره بالدعوة والاعراض والصبر واتّخاذ الوسائل الناجحة !

وكيف يقرّ ويعترف العرب بالنبوّة ومحمّد ﷺ لم يكن ذا ثروة وأموال كما لزعمائهم ، ولم يكن بالرجل المعروف بالشدّة والقسوة ، كما عرف الرجل العربي ، ويمدح به أنّه رجل الليل ورجل الغارات .

ولم يكن محمّد إلّا ذلك اليتيم قد مات كفيله وكفله عمّه أبو طالب ، ذلك هو محمّد الذي عُرف بالأخلاق والأمانة والصدق ، إنّه عجيب أن يصدر منه ، وأمره عجيب ، يتيم ، فقير ، يدّعي النبوّة ، ويدّعي أنّ هذه الآلهة ليست بأرباب ، وإنّما هي حجارة ، لا تضرّ ولا تنفع ، وينهى عن عبادتها ، والرجوع إليها ، ويؤلّب الفقراء على

---

(١) الدهر : ٢٣ ـ ٢٧.

(٢) الغاشية : ٢١ ـ ٢٦.

(٣) الشورى : ٤٨.

الأغنياء ، ويدّعي أنّ للفقراء نصيباً في أموال الأغنياء ، واجتمع حوله أراذل القوم ، خليط من هنا وهناك بائسون ضعفاء !

* أبهؤلاء يكوّن محمّد جيشاً ، وبهم يكون قائداً وزعيماً ويتفضّل علينا !

* إنّه يريد أن يتحكّم ويدّعي أنّ الوحي ينزل عليه بقرآن ويرجع العوامّ في أُمورهم إليه .

* إنّه يريد أن نعبد إلـٰهاً ونترك آلهتنا !

* إنّه يدعو بشيء عجيب غريب جديد !

ماذا يصنع هؤلاء ، وماذا يفعلون ؟ كيف والأمر اتّسع وشاع ومحمّد لا يكفّ ولا يتراجع ، ومحمّد هو الذي أقسم لعمّه أبي طالب : « لو وضعوا الشمس والقمر » .

* فتشكّلت عدّة أحزاب وفئات غرضها بثّ الإشاعات ضدّ هذه الدعوة ، وأثارت النعرات القديمة لشدّ العوامّ السطحيّين السذّج إلى الأصنام شدّاً ، وبثّ الأقاويل حول هذا الداعي وإلصاقه بما يمكن من عيوب ، وأقاموها حرباً ضدّ هذه الدعوة التي تنذر بالخطر .

* إنّ الدوافع لذلك كثيرة :

١ ـ فالمتنفّذون ـ الطبقة العليا ـ بدافع اقتصادي نفعي ؛ لأنّهم سدنة البيت ، ولهم رعاية الأصنام ، وإليهم ترجع النذور والقرابين ، ومنها يرتزقون ، وهم السلطة العليا ، وهم الملأ .

٢ ـ وأمّا العوامّ فتحرّكوا واندفعوا بلا بصيرة حرّكهم هؤلاء الملأ من القوم ، وأثّروا عليهم ، واستجاب لهم عوامّ الناس ؛ لأنّ التبعيّة لهم ، والرجاء والحجّة الماديّة تدفعهم.

ونشط العوامّ يكثرون الأقاويل هنا وهناك بعقليّة ضيّقة ونفوس مريضة ، قالوا ونقلوا أقوال الملأ ، وبثّوا أقوال أسيادهم في القبائل النائية ، وقولة هؤلاء حكاها القرآن:

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾[١].

﴿ ءَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُم مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾[٢].

وقام هؤلاء المتنفّذون بحملة وإشاعة الأقاويل لإبقاء زعامتهم ونفوذهم للمحافظة على وجودهم الذي يهدّده هذا الداعي ، واستمرّوا على إشاعة الاتّهام.

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ

---

(١) المؤمنون: ٣٣ و ٣٤.

(٢) ص: ٨ ـ ١٠.

الآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِـهَتِكُمْ إِنَّ هٰـذَا لَشَـيْءٌ يُـرَادُ * مَـا سَـمِعْنَا بِـهٰذَا فِـي الْـمِلَّةِ الآخِـرَةِ إِنْ هٰـذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾[١].



---

(١) ص: ٤ـ٧.

نجاح الدعوة في الإيمان بالحشر والمعاد

وكيف تحوّل الإنسان العربي من الإنكار والتشكيك إلى الإيمان والاعتقاد بالحشر والبعث وعودة هذا الجسم بعد موته ؟ والتزوّد بأعماله الصالحة والخوف والرجاء بالعقاب والثواب بعد إيمانه بوجود عالم هو عالم الآخرة فيه جنّة ونار ، وهذا يرجع إلى قدرة القرآن ، ونجاح الداعي في تقديم الأدلّة التي سيطرت وغيّرت من ذهنيّة الإنسان العربي ، وأزالت التشكيك منه ، وحوّلته إلى إنسان مؤمن بيوم القيامة ، وهذا النجاح ، وهذا الكسب ، لا يعرف إلّا أن تطّلع على نماذج من الآيات بخصوص هذا الموضوع ، يعرّفك على مستوى الإنسان العربي في التشكيك والإنكار والاستغراب والاستعداد.

﴿ يَقُولُونَ ءَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * ءَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾[1].

---

(١) النازعات: ١٠ ـ ١٢.

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[١].

فإذا قال الداعي: أنّكم مبعوثون بعد الموت قابلوه بالإنكار والاستغراب، وكان ردّ الفعل بتعجّب وتردّد واستبعاد: أنردّ إلى أوّل حالنا وابتداء أمرنا فنصير أحياء كما كنّا ؟ ![٢]

وكيف لا يستغرب العقل العربي عودة هذا الجسم وهذه العظام بعد التلاشي، فهو يرى جسماً قائماً، وإنساناً متحرّكاً ناطقاً، ثمّ تسلب منه الحياة، ويوارى في الأرض، وتمضي عليه سنوات وأحقاب، ويتحوّل إلى رميم وتراب ورفات بالية، ويختلط هذا بهذا، ويمتزج زيد بذرّات خالد، ويتحوّل إلى ذرّات دقيقة، والذرّات المتفتّتة تتجزّأ وتتلاشى وتكون جزيئات دقيقة وتحملها الرياح، وتختلط في تربة الأرض، ويزرع في الأرض، وينمو الزرع، ويحمل التراب إلى بقاع الأرض، هنا وهناك، شرقاً وغرباً، كيف العودة والحياة ؟ !

إنّه العقل المحدود، إنّه لا يدرك أسرار نفسه وأوهامه وتركيبه، وكيف كان عدماً ثمّ تحوّل إلى وجود ؟ وصدق القرآن في قوله:

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾[٣].

---

(١) المؤمنون: ٣٥ ـ ٣٧.

(٢) راجع مجمع البيان: ج٣.

(٣) الدهر: ١.

وأجاب القرآن عن هذا السؤال:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾[١].

ألا يرى هذا الإنسان كيف كان وتطوّر ونما وكسي اللحم والجلد، وكيف كان نطفة أو قطعة دم أو قطعة ماء لازج في رحم أُمّه ومضت عليه أشهر، ثمّ نطق، وقام اعتداله، وأصبح ذا لسان وعينين يبصر بهما، وقوائم، إنّ هذا لا يكفيه دليلاً على قدرة خالق الكون؟!

وأكثر من هذا نحن نعيش في عصر يقال له العصر المزدهر، خلق فيه الإنسان المعجزات، وتوصّل إلى معرفة أسرار خفت على من كان قبله رغم هذا التوصّل والتقدّم العلمي.

فقد كثر المشكّكون والجاحدون والمتأثّرون بقول هذا وتشكيك ذاك، فكيف بالعقل العربي الذي دُعي إلى الإيمان في الحشر وعودة الأجسام، فوقف عندها موقف المتأمّل الذي يرى ذلك صعباً بعيداً، وإذا بالقرآن يتحامل على هذا الإنسان العربي المشكّك.

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾[٢].

وصرّح الإنسان العربي في شكّ وتعجّب:

---

(١) الدهر: ٢.

(٢) القيامة: ٣ و ٤.

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[١].

وإذا بذلك الإنسان يتحوّل إلى مؤمن بالله ورسوله وبيوم الحشر والمعاد، ويتزوّد بالصالحات من الأعمال، ويعتزل الدنيا، ويتوجّه إلى الآخرة بالإكثار من العمل الصالح.



(١) يس: ٧٨ و ٧٩.

القرآن يحقّق غايته، ويصل إلى هدفه

ما هي غاية القرآن ؟ الدعوة إلى الله ، والاستقامة ، والخُلق الرفيع ، والمعرفة واليقين بالله ، والقرآن في كلّ مرحلة اجتازها ، وفي كلّ موقفٍ وقفه كان ناجحاً تغلّب فيه ، وحقّق غايته ، وغيّر تفكير خصمه ، فكان الإنسان العربي قبل القرآن يفكّر بما غرسه في ذهنه محيطه ، وأوحت إليه أُسرته ، بهذا كان يفكّر ، وتحوّل يعقل ويعلّل ويدرك أموراً أُخرى جديدة هي من وحي القرآن ونوره وهدايته ودعوته ، ولا ريب أنّ الإنسان العربي كان عصبيّ المزاج عنيداً بالباطل ، يثور ويردّ على ما يسمعه ردّ فعلٍ معاكس ، وأشدّ من المأمول ، وتحوّل إلى مؤمن لا يقول إلّا الحقّ ، ولا يفكّر إلّا بأنّه عبد لله ، إنسان مسلم ، يعتزّ بعقيدته ورسالته ، ويحامي عن دينه ، ويبذل أمواله في سبيل إعلاء كلمة الله ، وإطعام البائسين المعدمين ، ويحمل سيفه في الدفاع عن رسول الله امتثالاً لله تعالى ؛ لأنّ الله أوجبه عليه .

من الجاهليّة إلى الإسلام

وتحوّل من الشدّة والغلظة إلى رحمة وعطف وتسامح.

وتحوّل الإنسان العربي الذي كان يفسّر الرجولة هي الاعتداء والغلبة والقوّة والغارات، وأخذ الحقّ بالباطل وبالغلبة، أو يندفع وراء العاطفة.

وتحوّل العداء والتقاطع ونقض المواثيق والعهود.

وتحوّل البخل والشحّ.

وتحوّل الفساد والفتنة وسفك الدماء إلى إخاء وأُخوّة وحبّ وتوادد ووفاء وكرم وإيثار.

وتحوّل سفك الدماء إلى أمان ودفاع عن نفس أخيه وجاره، وعاش المجتمع الإسلامي في أيّامه الأُولى مجتمعاً سعيداً، مجتمعاً رفيعاً من حيث الدستور والحكم، ومن حيث أفراده تحت ظلال عدالة القرآن، لا يسمعون إلّا «الله أكبر»، «المؤمنون إخوة»، «والذين يؤثرون على أنفسهم»، «وألّف بين قلوبكم وجعلكم بنعمته إخواناً».

﴿ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[١].

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾[٢].

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾[٣].

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً ﴾[٤].

هذا هو الشعب الإسلامي الذي خلقه القرآن وغذّاه ، إنّه قرآن ناجح في خلق جيل وجيش كان سلاحه الإيمان والعقيدة ، ومنطقه القرآن والتوكّل والاستغفار والدعاء والرجاء ، والانقطاع إلى الله ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله تعالى. في فترة زمنيّة خلق القرآن جيشاً مسلماً ، إنّه جيش العقيدة ، إنّه من تكوين القرآن ومدرسته ، إنّهم رجال لا تلههم تجارة ولا بيع عن ذكره ، يعيشون في ﴿ بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾[٥] ، ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[٦] ، إنّهم جيش محمّد وصحابته المؤمنون ، حملة القرآن ، هذا هو المسلم ، وهذا هو المجتمع الإسلامي.

---

(١) الأنفال : ٢.

(٢) الأنفال : ٢.

(٣) إبراهيم : ٢٣.

(٤) البقرة : ٢٧٤.

(٥) النور : ٣٦.

(٦) الرعد : ٢٢.

خاتمة ونهاية مطاف

وبعد هذه الجولة الطويلة أدركنا فيها العقليّة العربيّة ، وأفكار الإنسان العربي قبل نزول القرآن ، وتغيّر أفكاره بعد نزوله ، فقد أدركنا:

١ ـ كيف قام القرآن بالدعوة إلى التوحيد وقدّم الأدلّة ، وكيف خاض معركة جدليّة مع خصومه ، وقدّم الغسيل الفكري للذهنيّة العربيّة ، وأزال المخلّفات الموروثة ، ورفع ما كان عالقاً في ذهنيّة الفرد العربي.

٢ ـ وكيف سلّط أنواره ليغيّر من تفكير الفرد العربي ، فكان قبل نزول القرآن إنساناً عربيّاً أحبّ القديم الموروث عن أبيه وعن جدّه وسلفه ، وتغيّر إلى إنسان عربي مسلم يفكّر بمفاهيم جديدة نتيجة لتأثير القرآن في ذهنه.

والقرآن جاء بمفاهيم وأفكار جديدة فطبع في ذهنيّة الفرد أنّه عبد لله ، أُموره بيده ، يجب عليه عبادته ، والتوكّل عليه في أُموره العامّة ، والعبد لا يدفع عن نفسه شرّاً ، ولا يجلب لها خيراً ، جاء القرآن

والذهنيّة العربيّة تفكّر بآراء ليس لها صلة بالدين، أو بالله، أو بالكون، أو بالنفس.

ثمّ جاء القرآن بتيّارٍ جديدٍ يحمل في آياته آراءً جديدةً وعقيدةً إسلاميّة جبّارة، أحكم بناءها حكيم عادل، وفجّرها الرسول في المحيط العربي، فكانت دعوته ثورة عامّة.

وفي القرآن ثورة إصلاحيّة جبّارة، وفي القرآن ثورة على العقل العربي وعلى شعوره وأفكاره وطقوسه، وصقل ذلك العقل وغذّاه بغذاء جديد وقوّة غيّرت تأمّلاته وتفكيره، وفي فلسفة القرآن أنّ العقل إذا لم يصل إلى نتيجة وهي الدلالة والهداية والإيصال إلى الله وإلى الإيمان بوجود خالق، ومن لم يفده عقله ولا يوصله إلى عقيدة بالله فهو إلى الحيوان أقرب، وإنسان بلا عقيدة إنّما هو جسم بلا روح، وبهذا جاء القرآن بالدعوة إلى الله، وجاء بشريعة فيها إصلاح الفرد وصلاح المجتمع.

ثورة عامّة، حطّم القرآن العلاقات والروابط القائمة، وأزال النظام القبلي المحكم وأبدله إخوة إسلامية، وغسل القلوب من الأحقاد، وغرس في القلوب الحبّ والإخاء، وخلق من رعاة الإبل قادة موجّهين وحاملين أكبر رسالة، وجعلهم دعاة لأعظم شريعة، وحملة للآي القرآني، غرس القرآن نظاماً إنسانيّاً في القلوب التي عاشت النظام العشائري المختلف بين قبيلة وأُخرى، والنزعات والعصبيّة

والأنانيّة مدّة ليست قليلة ، وطهّر الذهنيّة من بقايا الماضي ، وأخرج الأُمّة المعزولة إلى إثبات وجودها ، والفضل كلّه للقرآن كيف أثّر على ذهنيّة الفرد العربي الذي عاش الصحراء وتأثّر بما كان عند آبائه من سلوك متّبع من طقوس دينية عقائدية وعادات ، فكيف بالقرآن الذي يريد تحقّق مآربه ويبلور ذهنيّة الفرد ؟

فكانت الدعوة الإسلاميّة في أيّامها الأُولى تعاني صراعاً وحواراً بين نزع القديم وخلعه بتاتاً والاعتقاد بالدعوة الجديدة .

فكان الفرد العربي بين تفاعل ونزاع عقائدي تعلّق به وبين جديد وقف أمامه موقف المتأمّل بريب وتردّد وشكّ ، ولكن حقّق الله لنبيه ما أوعده به من إظهار هذا الدين ولو كره المشركون الخصوم ، ولو حاولوا وخطّطوا المخطّطات الإجراميّة له ، ولو حاول الكافرون إطفاء نور الدعوة الإسلاميّة ، لكنّ الله حقّق لرسوله النصر والفتح .

وإذا بالداعي الذي حاربه أبناء قومه وأخرجوه وكادوا له كيداً ويخرج من موطن آبائه وأجداده .

وإذا بالقوم الذين تألّبوا عليه يطلبون العفو منه .

وإذا بالرحمة تقطر عليهم تسامحاً .

وإذا بالأصنام تكسّر وتتحطّم فلا وثن ولا كفر .

وإذا بصوت الحقّ يعلو : « الله أكبر ، جاء الحقّ وزهق الباطل ، إنّ الباطل كان زهوقاً » .

وأعلن الإنسان العربي توحيده بالله ، وكسّر أصنام آبائه ، ورجع إلى

الله واعترف بالعبوديّة له ، وأقام فرائضه ، وأدّى ما عليه من واجبات ، فكان إنساناً عربيّاً ، وأصبح مؤمناً مجاهداً باذلاً ماله ودمه ، وحاملاً نفسه على كفّه ، ليس له همّ إلّا محاربة الكفّار ، وتطهير أرض الله من الكفر ، وكان الإنسان العربي كما تحدّث عنه القرآن في أكثر من فصل مستودع الشدّة والرحمة : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾(١) .

تجرّد عن الدنيا ، وأقبل على الآخرة ، وكشف عن بصره ، فأدرك الحقيقة ورأى عالم الجنّة .

هذا هو الإنسان العربي المسلم الذي تجسّدت العقيدة في سلوكه ، وتحوّل من عالم إلى مستوى أرفع وأعلى ، وكلّه عرفان ، وكلّه إدراك ، كيف كان ، وكيف أصبح بالإسلام ، وبالقرآن تنوّر ، واستنار بالإسلام ، وبدّل الذلّة ذلّة الجاهليّة إلى عزّة الإسلام وكرامة العقيدة ، ومن الجهل والأُمّيّة إلى العلم .

وبالعلم ارتقى إلى كسر الأوثان ، وسحق الكفر ، وخلع ثوب الإلحاد ، أبدله بتفكير في عالم النفس وعالم المحسوسات وبما وراء هذا العالم .

والمذهب القرآني يرى أنّ التفكير في هذا كلّه وسيلة لإيصال أو التوصّل إلى درجة من التفكير والإدراك لخفايا الأُمور ، والتأمّل في النفس وسيلة إلى المعرفة وإلى اليقين واكتساب درجة من اليقين به

---

(١) الفتح : ٢٩.

تعالى ، وفي الإسلام التفكير عبادة ، وفي ذلك طاعة وتقرّب له تعالى ؛ لأنّه يوصل لله.

وفي فلسفة القرآن أنّ الإنسان إذا لم يرجع إلى عقله ما هو إلّا جسم أجوف تحرّكه الرياح ، وتدفعه الأهواء إلى هنا وهناك ، إلى غير نتيجة ، وإلى أكثر من ساحل وعقيدة ، بلا عقل يدعمها ، إنّما هي عقيدة فاشلة مندحرة ، وفي القرآن إنّ العقيدة أساسها العقل والفكر.

فكّر وارجع إلى عقلك ، ثمّ اعتقد ، وحكّم عقلك ؛ لأنّك إنسان عاقل مفكّر ، دعا إلى التفكير والتأمّل ، وكان الإنسان العربي يفكّر ويطيل التفكير في وجوده ، ولماذا وجد ؟

والتفكير والتأمّل والبحث في أسرار الطبيعة أعظم وسيلة تنبيه للغافلين والجاحدين وجود الله تعالى والناكرين لوجوده ، وكلّما تقدّم العلم ، وكثرت الانتاجات العلميّة والاكتشافات كثر الإيمان به تعالى وازداد عدد المؤمنين والموحّدين ، فإنّ العلم يقدّم الدليل بعد الدليل للبرهنة على وجود خالق مبدع للموجودات ، وإنّما توصّل إليه العلماء من مكتشفات ، أو توصّلوا إلى معرفة حقائق الأشياء ازداد إيمانهم به تعالى كما أنّنا نقرأ اليوم ونسمع بأنّ كثيراً من العلماء انقلبوا من الكفر والجحود إلى الاعتراف به تعالى من خلال البحوث والتحقيقات ، وازداد عدد العلماء الذين آمنوا به تعالى ، علماء في الرياضيّات ، وعلماء في الفلك والمعنيّين بالرصد ومراقبة الكواكب ، سيرها

وغـيبتها وبُـعدها ، وعـلماء المـختبرات الذيـن يـدرسون الجـراثـيم ومفعولها وقوّة أثرها وتركيبها ودقّتها ، وعـلماء الحشـرات ، وعـلماء النبات ، وعلماء التربة ، وعلماء النفس ، وعلماء الصـحّة والتشـريع ، كلّهم أدركوا وجود خالق مبدع خـلق الأحـياء وصـنّفها ، فـقسم مـنها يدرك ، وقسم لايدرك بالعين ، وأدرك في عصور علميّة وبالمختبرات ، وإذا بالعلم في خدمة العقيدة ، وإذا بالحجاب الذي ستر ذهنيّة الإنسان المعاصر عن معرفة الله يرفع بظهور المختبرات والتحقيقات العـلميّة ، ويكثر عدد الموحّدين لله تعالى ، علماء موحّدون ، أو تـوحيد بـعلم ، ومن أعجب الأعاجيب إنكار الله في عصر العلم والعلماء.

وتكثر دعايات الكفر والجحود والطيش ، وكلّما يتقدّم العلم تـبين خفايا الأُمور وأسرار الموجودات ، وما دام في هذا الكـائن عـقل حـيّ وإرادة واستقلال ذاتي وسـلطة عـقليّة خـاضع لهـا ، فـإنّه لا بـدّ له مـن الإيمان بالله والرجوع إليه ، والاعتقاد بأنّ هذه الأسـرار وهـذه الحـقائق لم توجد هـنا بـهذا اللـون مـن الإبـداع والدقّـة والتكـوين. والعـجب العجاب إنّ كثيراً من العلماء يعيشون بلا توحيد وبلا إيمان بالله تعالى ، وقد ارتقوا مرقاة عالية من المعرفة !

وتـطالعنا الأخـبار أنّ العـالم فـي هـذا الحـقل ، أو الخـبير بـهذا الموضوع ، والاختصاصي في فنّ وهو يسجد إلى صنم ، أو إلى بقرة ، أو إلى كوكب ، أو مخلوق من مخلوقات الله تعالى !

ولم يكن في عقله قوّة دافعة لتوصله إلى معرفة ذاته وتركيبه بهذا الشكل العجيب من جريان في الدم ، وضخّ بمقادير معيّنة من الدم في مدّة معيّنة ، أو إفراز هذه المادّة ذات الطعم الخاصّ ، أو هذا السائل بهذا اللون المخصوص ، أو هذا الجهاز بهذه القوّة ، والأخذ والعطاء والتوزيع ، وهذه الغدد ، وهذه الخلايا ، وهذا النسيج ، وهذا الإبداع في نسيج هذه الأعصاب وإمدادها وجريانها . إنّ هذا وذاك يحتاج لهندسة عاقل فنّان قادر ليس فوقه قدرة ولا فنّ ولا إبداع ، أن يصوّر الإنسان ، ويقيم اعتداله ، ويسوّي بنانه ، وتخطيط بنانه المختلف ، وصوته المختلف ، طفلاً وشابّاً وشيخاً وذكراً وأُنثى ، سبحان الله عمّا يشركون .

إنّ هذا وغيره ذُكر في القرآن ، وجاء في الآيات القرآنيّة ، وأقام بها دعوته ، وغذّى بها الإنسان العربي .

إنّ القرآن يشكّل مدرسة خاصّة سبقت كثيراً من المدارس الفكريّة ، والمدارس الإسلاميّة في القضايا العلميّة .

إنّ القرآن مدرسة أوّلى في وضع أُسس التوحيد ، وتقديم أدلّة لمن أنكر وجود الله ، وشذّ عن معرفة خالقه سبحانه وتعالى .

إنّ القرآن خالق الإنسان الموحّد بالله عن معرفة وبرهان قبل أن ينبري فلاسفة المسلمين لبيانها ، إنّ القرآن حكى لنا نماذج من أدلّته التي قدّمها لنماذج بشريّة عاشت الكفر عن جهلٍ وعناد ، وعاشت

الشرك وراثة وتقليداً وتبعية الولد لجدّه وأبيه ، ولكنّه بفترة وجيزة خلق وجوداً جديداً وعقليّة متبلورة ونماذج إنسانيّة واعية عرفت الله وآمنت به وأطاعته وعرفته عن دعوة القرآن وأدلّته ، والفضل هو للقرآن.

فالقرآن خالق الإنسان المسلم العارف بالله.

القرآن خالق عقليّة وعت وأفاقت بعد انطباع الكفر فيها عن نومة طويلة ، ولكنّ القرآن نبّه الإنسان العربي وغذّاه عرفانه بالله تعالى ، وحرّره من الانزلاق في الكفر وظلمته ، وفي الخضوع إلى الأصنام ، ومن التعصّب لها ، والتمسّك بها ، والدفاع عنها. والمجتمع العربي مليء بالأصنام المختلفة في شكلها وصورها وضخامتها.

والقرآن يعتبر فيصلاً بين عقليّتين ؛ عقليّة الإنسان العربي في الجاهلية ، وعقليّة الإنسان المسلم في إسلامه الذي كان يفكّر بما لا يفكّر به اليوم ، ويعيشه في ذهنه من قبل ، ووصل إلى مستوى ذهني جديد هو ذهن الإنسان المسلم المثالي ، يقيم الصلاة ، ويدافع عن عقيدة عرفها.

إنّ هذا المستوى الذي وصل إليه الإنسان العربي إنّما هو بفضل القرآن بعد ما خاض معركة وأُخرى في ذلك ، وخرج منتصراً محرّراً للإنسان العربي عقليّته ونفسه ، وكوّن له شخصيّة جديدة اعتزّ برسالة الإسلام ، وآمن بالله خالقاً ومعبوداً ، وبالرسول داعياً نبيّاً ، وأزال القرآن عن ذهنيّة الإنسان العربي ما كان مغروساً فيها من قبل ، ومطبوعاً في

نفسه وراثة من أُسرته ومحيطه ، وهذا ما صرّح به القرآن: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾(١) ، وطبع في نفسه وفي عقله وأدرك فيما بعد أنّ هذه حجارة عبدناها دهراً أهي آلهة أم حجارة صمّاء ؟ !

ما لنا اتّخذناها آلهة من دون الله بعد ما كان يفكّر في القديم ؟ انقلب وتحوّل إلى تفكيرٍ جديد.

كان يفكّر في شخص الرسول ورسالته من قبل: ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴾(٢).

﴿ فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾(٣) ، إلى غير هذا من حكاية حكاها القرآن وغير تفكير ومستوى فكري صوّره القرآن ، وأخيراً خلق القرآن الإنسان المسلم المفكّر ، وأزاله عن هذه المستويات الضحلة الواطئة وهذا التأخّر ، ورفعه إلى مستوى ذهني رفيع.

إنّ القرآن نجح في ذلك وأزال ووضع ورفع وغيّر واقع الإنسان العربي ، وقد تسأل: ماذا وجد في نفسيّة ذلك الإنسان العربي ؟ وماذا غرس في هذا الإنسان وحوّله إلى إنسان يفكّر بما لم يفكّر به من قبل ويعتقد به من قبل ؟

---

(١) آل عمران: ١٦٤ و الجمعة: ٢.

(٢) المؤمنون: ٢٤.

(٣) القمر: ٢٤ و ٢٥.

وجد عادات وخرافات تعيش في نفس الإنسان العربي ، ووجد أساطير غرست فيه من غرس المحيط فقلع ذلك من جذوره ، ووجد تعصّباً للحجارة ووضع مكانه التوجّه والشكر والالتجاء إلى الله ، وعليه المعوّل في الشدّة والرخاء والثقة بالله تعالى ، وجد أُمّيّة عمّت البلاد وشملت الشعب العربي ، هكذا كانوا قبل القرآن .

العرب بعد نزول القرآن

وبعد نزول القرآن تغيّر الإنسان العربي ، وتغيّر طبعه ونظرته إلى الحياة ، وإلى الأرض ، وحتّى إلى التربة التي عاش عليها ، وأزال عن تلك النفس درن الماضي ، ووضع مكانه النصح والإرشاد والحبّ والوفاء.

وأزال كثيراً وكثيراً من نفسيّة الإنسان العربي ، وخلق إنساناً عرف ربّه ، وخلق إنساناً عرف هذا القرآن وأثره ، وتمسّك بدينه ، وتعلّق بكتابه ، ورجع إليه في أُموره العامّة ، أُمور الدين والدنيا ، إذن متى يعي هذا الإنسان ويرجع إلى القرآن ؟

ومتى يدرك ثروة القرآن ليستنير بها ، ويستضيئ بنوره ؟ ونور القرآن وأشعته كلّها علم ، وكلّها هداية ، وهل يدرك الإنسان المعاصر أنّ القرآن خلق تفكيراً في ذهنيّة آبائه وعياً وأفكاراً عقائديّة ، وهو ذلك القرآن وتلك القرآنيّة هي هي ؟ ومتى يتراجع عن بعده عنه ، ويتقرّب إلى القرآن الكريم ؟

تلك الأدلّة التي قرّبت أُمّة إلى عالم التوحيد بالله وطاعته، وهو القرآن الذي خلق أُمّة بعاداتها وطباعها كانت في الجاهليّة الأُولى، وإذا بها خير أُمّة أُخرجت للناس، هذا القرآن الذي شدّ من عزم آبائنا وأجدادنا في سوح القتال.

القرآن خلق عقليّة جديدة وأفكاراً ومفاهيم في الإنسان العربي المسلم، القرآن الكريم مدرسة مختلفة استطاعت أن تخرج وتصوغ نماذج من المسلمين ترفّعوا عن البشريّة في عقليّتهم وسلوكهم، إنّهم خريجو مدرسة القرآن، القرآن سلّط أشعته على ذهنيّة الإنسان العربي فتبلورت، ووجّه أنوار هدايته إلى نفس الإنسان العربي وغذّاها وصقلها، وكانت نتيجة هذه المدرسة القرآنيّة الخلّاقة أنّها استطاعت تخريج دفعة أُولى ونموذج مثالي من أفضل النماذج البشريّة، فمن هؤلاء، وما هي صفاتهم؟! وإنّنا لو رجعنا إلى القرآن لوجدنا آيات تتحدّث عن نماذج بشرية رفيعة ونجد فيها كثرة من النعوت.

إذن من هو المنعوت في هذه الآيات؟

إنّه الإنسان العربي المسلم الذي تخرّج من مدرسة القرآن، والقرآن هو الذي صوّر الإنسان العربي المسلم بطباعه وصفاته وشخصيّته واستقامته وأفكاره.

إنّه الإنسان العربي المسلم الذي استضاء بأشعّة القرآن، واستقى آراءه من وحي القرآن، واهتدى بهديه في سلمه وحربه، وفي

معاملاته وعلاقاته الاجتماعيّة ، وإليك نماذج تأثّروا بالقرآن في سلوكهم ومنطقهم وعقليّتهم ، إليك نماذج من المسلمين الذين صاغهم القرآن وأصقلهم ، وتجسّد القرآن في عقولهم وأفكارهم: عليّ ، والحسن ، والحسين ، وجعفر ، وعمّار ، وسلمان ، وأبو ذرّ ، وغيرهم كثيرون.

ويستبان لك أثر القرآن في خلق أفكار وطبيعة جديدة ، وعقليّة جديدة ، وسلوك جديد ، يختلف عن العقليّة والطبيعة والسلوك القديم الذي كان قبل نزول القرآن.

بعبارة أُخرى نزول القرآن في المحيط العربي كان له الأثر في خلق مجتمع إسلامي تسوده السعادة والعدالة والصفاء ، لا ظلم ولا تهوّر ولا استبداد ولا شذوذ ، وتعرف هذا الأثر إذا عرفت أخلاق وسلوك ونفسيّة وعقليّة الإنسان العربي قبل نزول القرآن ، وكيف كان الإنسان ، ثمّ كيف تغيّر وتبدّل بعد نزوله ؟ وأنّ القرآن كان له الأثر في تغيّر واقع الإنسان العربي ونفسه وعلاقاته وخلقه وروابطه وأفكاره.

١ ـ وإذا قلت لك: إنّ القرآن ثورة أحدثت نظاماً جديداً وإنساناً عربياً يختلف عن أبيه وجدّه في أفكاره وأخلاقه وسلوكه وواقعه.

وبعبارة أكثر وضوحاً: إنّ القرآن خلق المسلم المثالي الكامل ؛ لأنّه اقترب إلى القرآن ، وأخذ منه ، واستقى واستضاء وانطبع وتنوّر بعقله ، وتبدّلت أفكاره ونظراته إلى الكون والوجود ، وهذا من فضل القرآن وتأثيره.

وكلّما ازداد اقتراب الإنسان إلى القرآن ازداد عرفانه بالله بنفسه ووجوده.

وكلّما اشتدّت صلة الإنسان المسلم بالقرآن ازداد علماً وإيماناً وقوّة وعزماً ويقيناً، كما كان الإنسان العربي المسلم الذي أدرك نزول القرآن وتأثّر به، وأخذ منه، وسار على هدايته؛ لأنّه هو دستوره؛ ولأنّه هو كتابه.

٢ ـ وإذا كان القرآن هو كتاب هذا الإنسان المسلم إذن ما هي صلته به، وما هي آثاره في عقله ونفسه وسلوكه وروابطه وعلاقاته العامّة ؟

وهل نملك أو نجد إنساناً أخذ من القرآن، أو طبّق القرآن على نفسه كما يريده القرآن للإنسان المسلم، أو يريده من المسلم المثالي ؟ ماذا يريد هذا القرآن، وهل في القرآن غير الدعوة إلى الاستقامة والاعتدال، وهل يريد غير السعادة لهذا الإنسان ؟

وقد وضع القرآن أمام الإنسان كلّ وسائل الترقية والتوجيه والتوعية لغرض الوصول إلى واقع جديد، ويختلف المسلم المعاصر عن المسلم العربي الذي تأثّر بأنوار هداية هذا القرآن إنّه المسلم الواقعي، إنّه المفكّر حامل أفكار القرآن وآياته في نفسه وذهنه، فهو من أهل الدنيا في الوجود الحسّي والقالب المادّي، ولكنّ نفسه عرجت قبله إلى مقرّها ووكرها في عالم النفوس، رجعت إلى الله.

وهو يعيش بين أهل الدنيا في سجن وعذاب، وبين آلام ومؤثّرات

«الدنيا سجن المؤمن» ، وعقله لا يفكّر إلّا في عالم الآخرة ، كيف العرض ؟ وكيف النهاية ؟ وكيف الخروج من القبور ؟ وكيف الوقوف للحساب ؟ وأنّ النهاية عذاب أم ثواب ؟ «كأنّه اطّلع على أهل النار وشاهدهم كيف يعذّبون ، وعلى أهل الجنّة كيف ينعّمون» ، ويتلذّذون في ملذّات وفواكه وجمال ، ذلك العالم فهو بين الخوف والرجاء وبين الدنيا والآخرة ، اشتدّ واهتمّ بالدنيا والآخرة ، وتوجّه إلى الله وأُنشودته : «اللّهمّ آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار».

٣ ـ وتحدّث القرآن في كثير من آياته وفصوله عن طبيعة هذا الإنسان الذي خلقه القرآن وتخرّج من مدرسته ، عن المسلم الذي أدرك عصر نزول القرآن ونهج منهاج القرآن العادل في فترة وجيزة ، وإذا بنماذج من المجتمع العربي تتحوّل إلى نماذج مسلمة تعيش بعقلية قرآنية جديدة وواقع إسلامي جديد رفيع ، من جاهليّة أولى إلى شريعة واسعة ، وأُنشودته هي :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[1].

إنّ إيجاد وتغيّر وإبدال نفسيّة العربي إلى واقع جديد في فترة زمنيّة قليلة ليس بالسهل ، ولا تتصوّر أنّه عمل سهل ، إنّه عمل شاق وصعب يدركه أنصار كلّ دعوة جديدة في المجتمعات البشريّة ، فماذا تقول

---

(١) آل عمران : ٨٥.

بالدعوة الإسلاميّة ؟ في فترة قليلة خلقت نماذج مسلمة تحدّث القرآن عن نعوتها وصفاتها وسلوكها وطباعها ، وأطنب القرآن في بيان صفات المسلم وأعماله وقرباته وعبادته وأخلاقه.

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾(١).

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾(٢).

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً * وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَاماً * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ﴾(٣).

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِن أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾(٤).

---

(١) الرعد: ٢٠ ـ ٢٢.

(٢) الرعد: ٢٨.

(٣) الفرقان: ٦٣ ـ ٦٨.

(٤) الفرقان: ٧٢ ـ ٧٤.

﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّآتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾(١).

وبما تقدّم من هذه الآيات القرآنيّة أدركت كيف استطاع القرآن تكوين جيل ، وخلق نماذج من المؤمنين حملوا القرآن ووعوا آياته ، وعلّموا آخرين دخلوا إلى الإسلام في عصور تلت العصر الأوّل.

وأدركت كيف أخرج القرآن هذه الأُمّة من عزلتها عن الأُمم الأُخرى وانطوائها وانقطاعها إلى تكوين أُمّة تسلّحت بالعلم والمعرفة والعقيدة ، وأدركت الفروق المحسوسة في كلام وبتفكير ومعتقد الإنسان العربي قبل القرآن وبعده ، وأنّ القرآن هو الذي صاغ إنساناً عربيّاً واعياً وخلق فيه التعصّب الحقّ ، والتمسّك بالقرآن والفخر به ، وهو الذي وحّدهم بعد الفرقة ، وأعزّهم بعد الذلّة ، وأثار أفكارهم من التفكير الجاهلي الوضيع ، وسقاهم من التفكير الإسلامي ، وأخرجهم من الغربة ، ومن الوحشة ، ومن الانعزال عن اللقاء مع الآخرين ، وإذا بالجيوش الإسلاميّة ذات المنعة والهيبة والصولة والقوّة تهدّد العالم ، وما ذلك إلّا بالإسلام.

١ ـ فهل يدرك الإنسان المسلم المتباعد عن القرآن ذلك ويتراجع إلى قرآنه الذي خلق من آبائه وأجداده جيشاً عقائديّاً ومجتمعاً سعيداً شعاره التوحيد والدعوة إلى الله ؟

---

(١) آل عمران : ١٩٣.

٢ ـ إنّ القرآن غذاء روحي ونور للأذهان ، فقد خلق نوراً وشعوراً ووعياً جديداً ، وتفكيراً يختلف عن التفكير الذي كان في الإنسان العربي القديم ، وخلق من الكاذب إنساناً صادقاً لا يفكّر بالكذب ، وأودع فيه عصمة ووازعاً دينيّاً ورقيباً داخليّاً يحذّره إن حاول الكذب .

* **ويكفي** الداعي فخراً أن خلق أمثال أبي ذرّ الغفاري الذي شهد فيه قائلاً : « ما أظلّت الخضراء ، ولا أقلّت الغبراء ، أصدق ذي لهجة من أبي ذرّ »[١] .

* **ويكفي** الداعي فخراً أن يخلق أمثال عليّ عليه السلام ينازل أبطال العرب وهو ابن الثامنة عشر ، ويقاتل الفرسان دفاعاً عن الجيش الإسلامي وعن الرسالة .

وإذا بالرسول يعلنها : « برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه » .

* **ويكفي** القرآن أن خلق من الإنسان العربي الذي يعيش الاستغراب والتعجّب والاستبعاد ويفسّر الممكن وقوعه ووجوده وتكوينه ، يفسّره من ضرب المستحيل العسير البعيد ، ويرى من الأُمور العظيمة أنّ الله هو الخالق وأنّه لا يرى ولا يتحيّز بمكانٍ أو زمان ، ولا يحسّ بصورة خارجيّة ، كيف يكون ذلك ؟ ولذا اتّخذ الإنسان العربي الأصنام آلهة وواسطة بين الله وشفيعه إلى الله ؛ لأنّه لم ير ولم يشاهد .

---

(١) حديث نبوي شريف متّفق عليه .

وتعجّبوا من عودة هذا الجسم .

وتعجّبوا من كون هذا اليتيم نبيّاً .

وتعجّبوا أن يكون القرآن كتاباً مُنزلاً .

وتعجّبوا أن يكون النبيّ من البشر ، وتعجّبوا وتعجّبوا.

إذن كيف تتصوّره هذه العقليّة ؟

وكيف صقلها القرآن وخلق منهم الإنسان المفكّر والخطيب والصحابي الفقيه والزاهد ، وخلق فيهم التعصّب للحقّ الذي لا تأخذه في الله لومة لائم ، حاملاً سيفه في يديه ، وقرآنه على شفتيه ، والدعوة إلى الله في لسانه ، والعقيدة والاستقامة في هديه ووعيه وتقواه وخلقه ؟ !

فأي مدرسة تماثل مدرسة القرآن في تكوين وصياغة مثل هذه النماذج التي أثّر بها القرآن وصقلها وغذّاها ونوّرها بالعلم والعقيدة ، وأنزل في قلوبها الرحمة والرقّة والعطف والورع والاستقامة ، فلا ترى غير القرآن كتاباً ، ولا غير الإسلام ديناً ، ولا غير الشريعة عقيدة.

هذا هو الإنسان العربي ، وهذا هو النموذج المسلم الذي تخرّج من مدرسة القرآن ، علم وورع وخلق وجهاد وثبات على العقيدة ، فهل نحن كآبائنا في صلتنا بالقرآن والعمل به ؟

إنّ آباءنا الأقدمين الذين سادوا وحكموا وجاهدوا وانتصروا خافتهم الدنيا ، ودانت لهم الأرض ، وحملوا القرآن ، ورتّلوه في النهار

في المساجد وفي الليالي المظلمة ، وفي ساحات الحروب ، وأقاموا الصلاة في المعارك ، ورفعوا أصواتهم بالأذان ، لكن أقول بصراحة : ما دمنا تباعدنا عن القرآن فقدنا كلّ ذلك ، وما دمنا عطّلنا القرآن وجمّدناه عن الميادين العامّة فإنّما سنعيش الذلّة والفقر والاستجداء الفكري والافلاس والحاجة إلى غيره في حلّ مشاكل هذا الإنسان ، وهل ترك القرآن ناحية من نواحي الحياة ، أو مشكلة من مشاكل الفرد ، أو وسيلة لسعادة المجتمع لم يذكرها ، أو لم يضع لها الحلّ العادل ؟

وأعود وأقول : إنّ أحفادنا ستدرك ما في هذا القرآن من ثورة فكرية ، وتأخذ منه ما يكفي لسدّ حاجاتها ، وتكتفي به ، وإنّ إنسان الغد ومسلم الغد يتعلّق بالقرآن ويجد فيه ينابيع جارية عذبة في مختلف المجالات ، ولكنّ إنسان اليوم ومسلم اليوم لا يعلم أنّ الرسول أعلن بصراحة : « إنّي مخلّف فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي » ، ولا يعلم أنّ عليّاً قال : « الله الله بالقرآن ، لا يسبقكم إلى العمل به غيركم » .

فلا أخذنا بقول الرسول وهو القائل : « ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا من بعدي » ، ولا بقول عليّ فقد سبقنا غيرنا إلى هذا القرآن ، وترجمه واستقى منه وحوّله إلى نظام واستشهد بآياته ، وآيات القرآن تصلح لإنسان اليوم وإنسان المستقبل ، وما علينا إلّا أن نتذكّر كيف كان المجتمع الإسلامي ، وكيف ارتقى إلى القمّة العليا في العلم والعلماء

والإنتاج الفكري ، وكلّه من شريعة هذا القرآن.

اللّهمّ ثبّتنا على دينك وملّة رسولك ، ووفّقنا إلى العمل بكتابك ، ونوّر أذهاننا لمعرفة القرآن ، إنّك أرحم الراحمين.



آثار المؤلّف

١ ـ الشعر المتفلّسف أعلامه وروافده .

٢ ـ النحو العربي في ظلال التشيّع .

٣ ـ الإمام عليّ واللغة العربيّة .

٤ ـ حادثة كربلاء . . أسبابها ونتائجها .

٥ ـ شرح ألفيّة الحجازي في النحو العربي .

٦ ـ محمّد كما صوّره القرآن .

٧ ـ الكلمات الدخيلة وأثرها في الأدب العربي .

٨ ـ الكعبي شاعر الثأر .

٩ ـ شرح منظومة ابن الحاجب في الأسماء المؤنّثة السماعيّة .

المحتويات